الفيضان وغرق بغداد
في العصر العباسي

مدينة المنصور في الجانب الغربي من دجلة :

درجت الأمم في سالف الأزمان على تصميم مدنها الرئيسة على شكل حصون منيعة تحيط بها أسوار ضخمة مدعومة بأبراج وشرفات ، تدور حولها خنادق تملأ بالمياه للدفاع عنها ؛ وكان طبيعياً أن يوجه المنصور جل اهتمامه الى هذه الناحية حين أسّس عاصمته الجديدة — مدينة السلام — سنة ١٤٥ هـ على الضفة الغربية من دجلة ، فصممها على شكل قلعة مدورة وأحاطها بعدة أسوار كما هو معلوم ، وجعل لها أربعة أبواب كبار من الحديد وكان كل مدخل نظير المدخل الآخر في تصميمه ، فسمي الباب الشمالي الغربي « باب الشام » والباب الجنوبي الغربي « باب الكوفة » والباب الجنوبي الشرقي « باب البصرة » والباب الشمالي الشرقي « باب خراسان » .

وكانت تقع مدينة المنصور بين الكاظمية من الشمال وقرية الكرخ من الجنوب الغربي والشيخ جنيد (مقبرة الشونيزي) والشيخ معروف الكرخي من الجنوب الشرقي وقرية سونايا (المنطقة الحالية) من الشرق وقد أتم المنصور بناءها سنة ١٤٩ هـ (٧٦٦ م) . وعلى أثر إنشاء العاصمة الجديدة أقبل الناس على السكنى في جوارها فاتسعت قرية الكرخ التي في جنوب المدينة وصارت تعرف باسم محلة الكرخ ، وهي من المحلات الكبيرة بغربي بغداد ، كما نشأت شمال الكرخ محلتا باب البصرة وباب الكوفة . أما المنطقة

التي في شمال المدينة . فكان فيها عدة أرباض أهمها محلة الحربية في الناحية الشمالية الغربية ومحلة الشارع في الناحية الشرقية منها ، ومحلة باب التبن والقطيعة الزبيدية في أقصى الشمال بالقرب من الكاظمية الحالية .

وقد انشيء خلف مدينة المنصور من الجهة الشرقية سور وخندق للدفاع عن العمران الذي انتشر حوالي مدينة المنصور المدورة ، ومن أهم ذلك العمران محلات الحربية وباب الشام وباب الكوفة ، وانشئت عدة قناطر وأبواب على الخندق . وكان هذا الخندق يأخذ من نهر الصراة [1] فينحرف نحو الشمال الشرقي ، وبعد أن يمر من مقابل باب الشام تاركاً محلة الحربية الى الشرق ينتهي إلى دجلة في جوار محلة باب التبن شمال شرقي الكاظمية . ومن الراجح أن هذا الخندق أنشيء لأغراض عسكرية ترمي إلى احاطة مدينة المنصور وضواحيها بالماء من جميع أطرافها ، فتكون على شكل جزيرة تحيط بها المياه من كل جانب إذ تحدها دجلة من الشرق والصراة من الجنوب والخندق الخارجي من الغرب والشمال وذلك زيادة على الخندق الذي يدور حول المدينة المدورة. ومما لاشك فيه ان الخندق الخارجي وخلفه السور من الداخل كانا قد استخدما في الوقاية من خطر الغرق من مياه فيضان نهر الفرات .

أما ما يتعلق بالوقاية من أخطار الفيضان ، فالطريقة التي كان يتبعها القدماء في أكثر الحالات ، هي : أنهم كانوا يقيمون دورهم ويؤسسون مزارعهم على أحد شطي النهر ، فيحيطونها بسداد محكمة ، ويصمدون أمامها تاركين مياه الفيضان تنتشر في الأراضي الواطئة خلف الشط المقابل . وهكذا كان الحال حين أقام المنصور مدينته ، فقد أنشأها على الجانب الغربي لنهر دجلة حيث تقع أراضي هذا الجانب في مستوى عالٍ بالقياس إلى مستوى أراضي الجانب الشرقي ، وقد استفاد من الأسوار المحيطة بالمدينة للوقاية من

(١) نهر الصراة فرع كان يتشعب من النهر المعروف بنهر عيسى وكان هذا النهر يأخذ من الفرات وينتهي الى دجلة في جوار بغداد .

مدينة المنصور المدورة بمقياس ١٠٠٠٠

حسب تحقيق الدكتور احمد سوسة

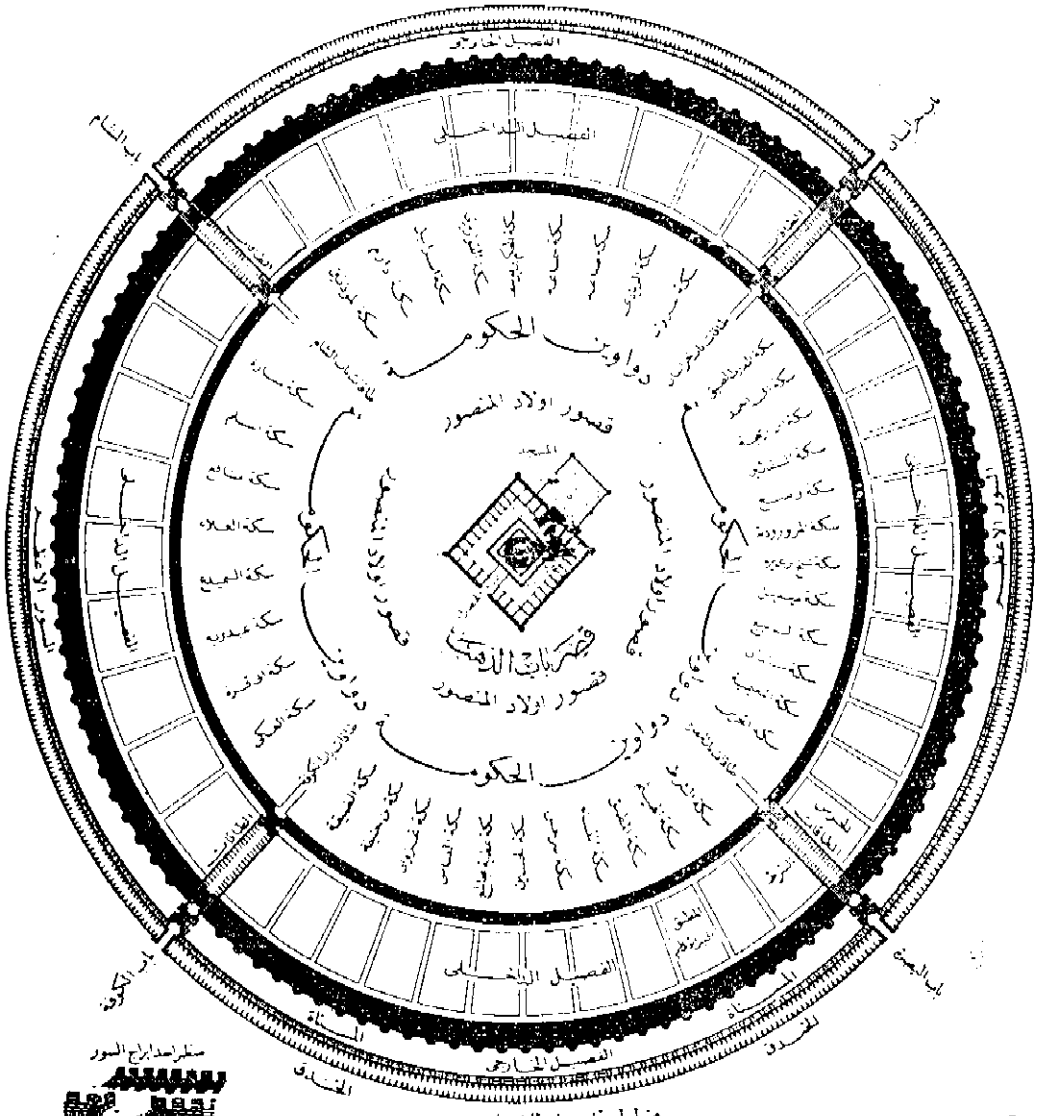

مخطط تفصيلي للابواب

المقياس ١ : ٢٠٠٠

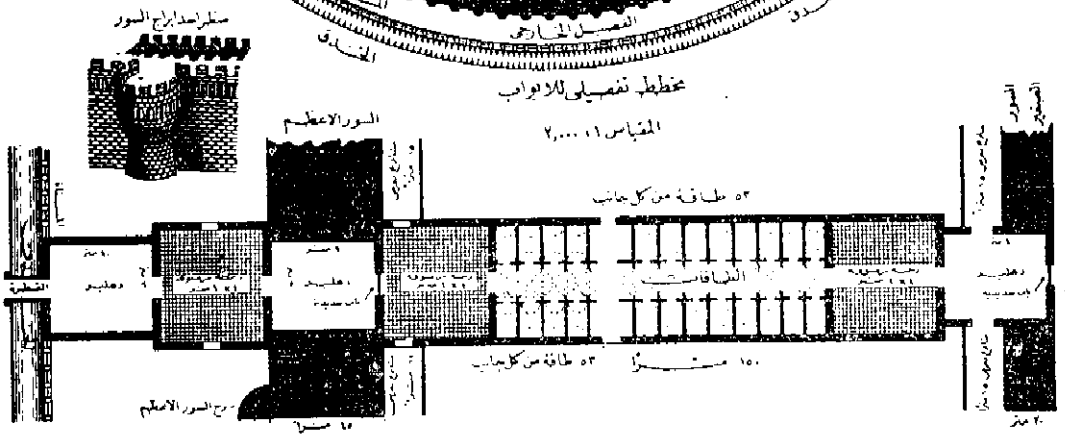

مقطع المدينة المدورة من القصر الى الخندق

المقياس ١ : ٥٠٠٠

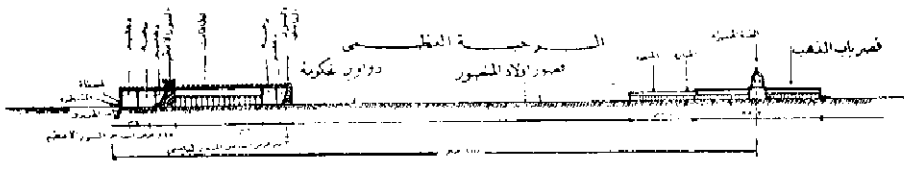

خطر فيضان دجلة من الشرق والفرات من الغرب تاركاً مياه فيضان دجلة تنتشر في الأراضي الواطئة على الجانب الشرقي من دجلة حتى تعود الى دجلة جنوبي المدينة . أما مياه فيضان نهر الفرات فكانت تنصب في منخفض هور عقرقوف شرقي بغداد ومنه تنفذ إلى دجلة جنوب المدينة . وكانت بحيرة الحبانية الواقعة على الضفة اليمنى من نهر الفرات في جوار الرمادي تستخدم كخزان طبيعي تحوّل اليه مياه فيضان الفرات بصورة تلقائية مما يخفف من وطأة طغيان النهر جنوباً .

مدينة الرصافة في الجانب الشرقي من دجلة :

ثم دخلت بغداد مرحلة جديدة في تطور بنائها بعد أن انزل المنصور ابنه وولي عهده المهدي في الجانب الشرقي ، وجعل مقر جنده هناك ، وكانت تعرف المحلة الجديدة أولاً باسم « عسكر المهدي » ثم سميت « الرصافة » . وأول بناء شيد في هذا الجانب هو « جامع الرصافة الكبير » ثم عقب ذلك بناء « قصر المهدي » في جوار الجامع وإقامة الدور والقطائع حوله ، وقد أنشيء حول المعسكر سور يدور حول خندق عملاً بما تقتضيه الأحوال العسكرية الدفاعية . وعقد المنصور جسراً فوق دجلة من جهة « باب خراسان » ليصل به مدينته الغربية بمحلة « الرصافة الشرقية » ، وكان يعرف هذا الجسر باسم الجسر الكبير او جسر الرصافة . وكانت الرصافة تقع مقابل مدينة المنصور على وجه التقريب ، وقد بدأت العمارة فيها سنة ١٥١ هـ (٧٦٨ م) ، وانتهت سنة ١٥٧ هـ (٧٧٣ م) ، ثم اتصلت العمارة جنوبها وشمالها . وبامتداد العمران الى هذا الجانب أصبح من المحتم اتخاذ التدابير اللازمة لوقاية المدينة بجانبيها الغربي والشرقي من أخطار الفيضان [1] .

(١) يجد القاريء عرضاً مفصلا لتطور خطط مدينة بغداد في مختلف أدوارها التاريخية في « دليل خارطة بغداد المفصل » تأليف صاحب هذا المقال والدكتور مصطفى جواد ، وقد نشره المجمع العلمي العراقي ، كما يجد في « خارطة بغداد قديماً وحديثاً » التي وضعها صاحب المقال بالاشتراك مع الدكتور مصطفى جواد والأستاذ أحمد حامد الصراف تفاصيل المواقع التاريخية بالنسبة الى تخطيط المدينة الحالية . وفي « اطلس بغداد » لصاحب هذا المقال خرائط مفصلة لمدينة بغداد في مختلف أدوارها التاريخية .

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن عمران الرصافة كان في أول عهده أقل تعرضاً لخطر فيضان دجلة حيث كانت مياه فيضان ديالى تحوّل من أمام السدّ الحجري الذي كان قائماً

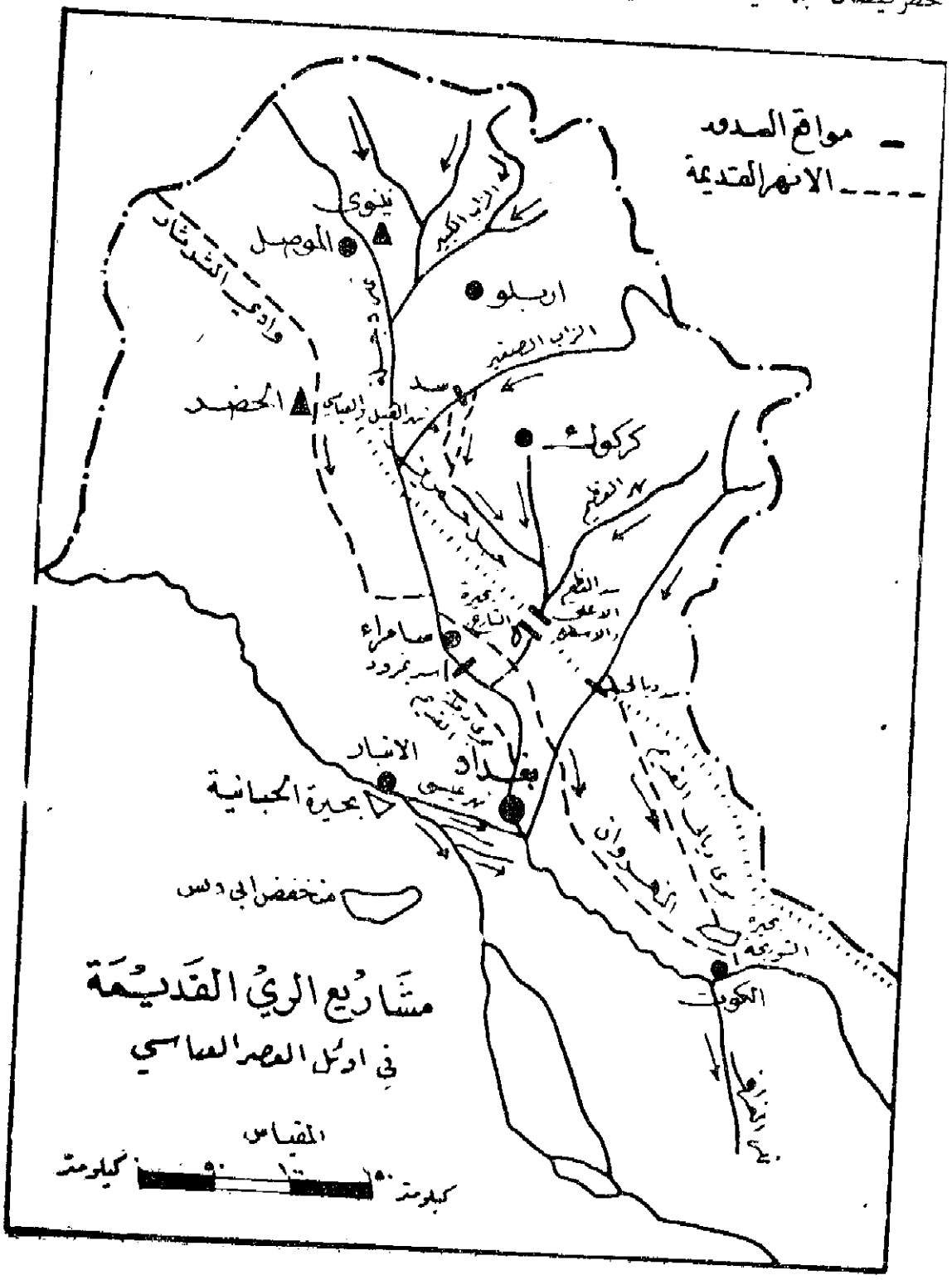

في مضيق جبل حمرين الى هور الشويجة شرقي مدينة الكوت ومنه إلى دجلة جنوبها ، كما كانت مياه فيضان نهر العظيم تحول من امام السدالقائم في مضيق جبل حمرين أيضاً الى خزان بحيرة الشارع جنوب شرقي سامراء ، وتشاهد اليوم آثار سدين ضخمين على نهر العظيم في موقع اجتيازه سلسلة جبل حمرين أحدهما في مضيق جبل حمرين والثاني على بعد بضعة كيلو مترات جنوباً مما يدل على أن احد السدين كان قد انهار فانشىء سد آخر ليحل محله . (انظر تصويري آثار هذين السدين) . وكان سد ترابي ضخم على نهر دجلة جنوب

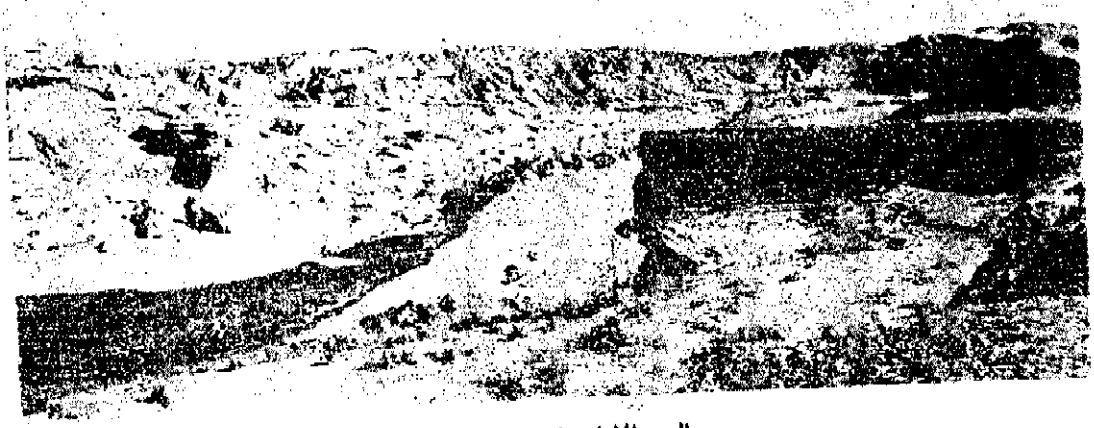

السد الاعلى على نهر العظيم
بقايا الدعامة التي على الجانب الايسر من النهر

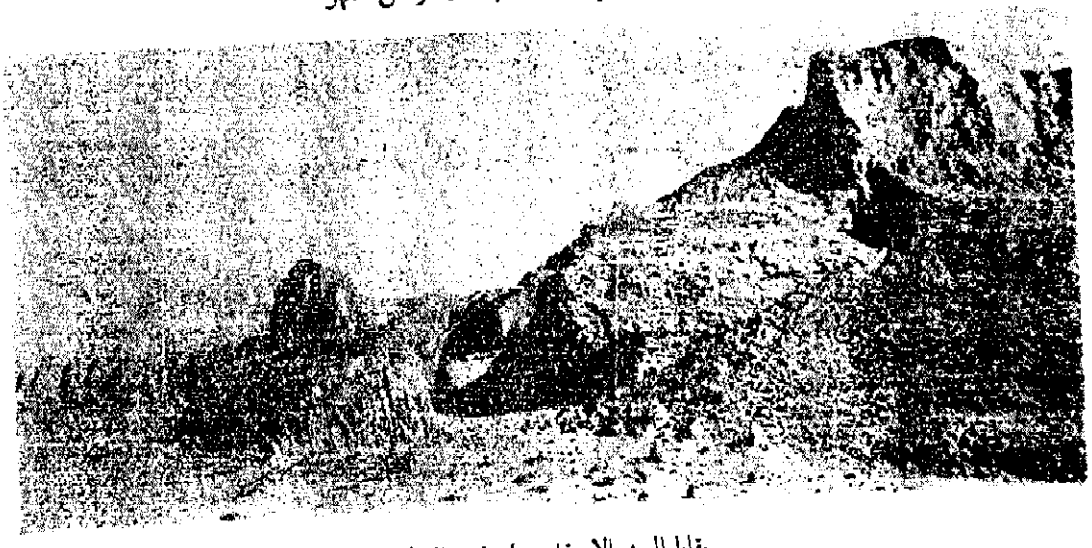

بقايا السد الاسفل على نهر العظيم

سامراء يعرف باسم « سد نمرود » ومن امام هـــذا السد كان يأخذ جدول النهروان في الجانب الشرقي من النهر فيسحب مقادير غير قليلة من مياه فيضان دجلة وكانت له مصارف تصب في دجلة جنوب بغداد ، وكذلك كان نهرا الاسحاقي ودجيل في الجانب الغربي يسحبان مقادير أخرى من المياه ؛ وفي الشمال كان على نهر الزاب الصغير سـد يعمل على حجز مياه فيضان هـــذا النهر وتحويلها بطريق نهري الفيـل والعباسي القديمين ووادي زغيتون الحالي إلى نهر العظيم ، وبعد اتحاد مياه فيضان النهرين ، الزاب الصغير والعظيم، يتم تحويل المياه المتجمعة أمام سد العظيم في مضيق جبل حمرين الى بحيرة الشارع المتقدم ذكرها فتخزن فيها المياه ثم تحول منها الى جدول النهروان عند شح المياه في نهر دجلة في موسم الصيهود [1] (انظر خارطة مشاريع الري القديمة في أوائل العصر العباسي المنشورة مع هذا المقال) . فكان ذلك يخفف من وطأة الفيضان في بغداد الى حد بعيد ، ومع ذلك فمن المرجح أن السور الذي أنشيء حول معسكر المهدي قد أستفيد من وجوده في الوقاية ضـد أخطار الفيضان ، وإن كان الهدف الأساس الذي أنشيء من أجله هو تحقيق أغراض عسكرية دفاعية .

وكما هو الحال في الأنهر التي يكثر الطمي في مياهها ، كان نهر دجلة يشكل أخدوداً مرتفعاً في كل من ضفتيـه وان الأراضي تنحدر من الجانبين بهبوط تدريجي كلما ابتعدت عن النهر، وهذا يفسر سبب نمو العمران في مدينة بغداد على طول ضفة النهر كما هو معلوم ، ولا شك أن عامل الفيضان قد أثر في تحديد نمو بغداد على هذا الشكل ، وقد استمر هذا التحديد أكثر من ألف عام حتى شرع في انشاء السدود الضابطة في العهد الأخير ، فأخذ ينتشر العمران عرضاً .

(١) حول هذه المشاريع القديمة راجع كتاب « ري سامراء في عهد الخلافة العباسية » بجزئيه الأول والثاني تأليف صاحب المقال .

حوادث الفيضان في أدوار مدينة بغداد كما رواها المؤرخون

يتضح مما تقـــدم ان المدينة ، بجانبيها الغربي والشرقي ، لم تكن مهددة بخطر كبير بسبب الفيضان حين انشأها المنصور وهذا ما يجيب عن السؤال الذي يتبادر الى ذهن المتتبع لحوادث غرق بغـداد ، وهو : لماذا اختار المنصور الموقع الذي انشأ فيه مدينته وهو معرض لخطر الغرق ؟ ... لذلك فاذا اردنا البحث عن حوادث الفيضان وغرق بغداد في العصر العباسي وجب علينا ان نتتبع المراحل التي مرت بها المدينة في مختلف ادوارها في ضوء تاريخ ري العراق وتطوره منذ تأسيس المدينة لما بينهما من صلة وثقى . ونستخلص من تتبعاتنا لحوادث غرق بغداد في ضوء تطور مشاريع الري في العهد العباسي ان المدينة مرت بثلاث مراحل خلال مدة الحكم العباسي بين سنتي ١٤٩ هـ و ٦٥٦ هـ ، اي خلال مـــدة حوالي خمس مئة عام ، فمرت المرحلة الأولى التي يمكن تحـديدها بالقرنين الأولين من تاريخها ، اي بين سنة ١٥٠هـ و٣٥٠هـ ، بسلام دون ان تتعرض المدينة الى خطر كبير من جراء الفيضان ، ويرجع سبب ذلك بالدرجة الأولى الى منشئات الري التي المعنا اليها فيما تقـدم والتي كان لها اثر كبير في ضبط مياه الفيضان والتخفيف من وطأته بالنسبة الى مدينة بغداد.

وأول ذكر جاء لفيضان نهر دجلة بعد بناء مدينة بغداد كان في سنة ست وثمانين ومئة للهجرة (٨٠٢ م) في أيام الرشيـــد ، إذ زادت دجلة زيادة كبيرة ، « فنزل الرشيد بأهله وحرمه وأمواله الى السفن ، ومنع الناس من العبور إشفاقاً عليهم » ، وذلك يدل على أن الخطر كان محدقاً بالجانب الشرقي للمدينة [١] . وفي عهد المأمون زادت دجلة أيضاً وكان

(١) «مناقب الامام احمد بن حنبل » لابن الجوزي (الطبعة المصرية ص ٢٧) . وقد ورد ذكر فيضان آخر وقع في زمن الرشيد أيضاً ، فجاء في كتاب « الوزراء والكتاب » للجهشياري (ص ٧١) ما يلي : « وكان الماء زاد في أيام الرشيد وكان الرشيد غائباً في بعض متصيداته ، ويحيى بن خالد مقيم ببغداد فركب يحيى ومعه القواد ، ليفرقهم على المواضع المخوفـــة من الماء يحفظونها ، ففرق القواد وأمر باحكام المسنيات وصار الى الدور فوقف ينظر الى قوة الماء وكثرته فقال قوم : ما رأينا مثل هذا ! فقال يحيى بن خالد : قد رأيت مثله في سنة من السنين » .

ذلك يوم الاربعاء لغرة ذي الحجة سنة ٢١٥ هـ ، (٨٣١ م) [١] حتى صار الماء على ظهور بيوت الرحى من الصراة (الجانب الغربي من المدينة) وذلك في وقت لم يكن تزيد فيه هذه الزيادة وتقطعت لذلك الجسور بمدينة السلام وزاد بعـــد ذلك اكثر من تلك الزيادة ثم نقص [٢] . وفي سنة ٢٢٠ هـ ، (٨٣٥ م) زادت دجلة أيضاً وكان ذلك في شهر نيسان حينما كان المعتصم يريد القاطول ويريد البناء في سامراء فقد صرفه حينئذ عن قصده كثرة زيادة دجلة فامتنع عن الحركة وانصرف الى بغداد الى الشماسية حتى نزلت المياه الى مجاريها فعاد هو الى قضاء اعماله وعليه فلم يلحق النهر ضراً بالمدينة [٣] .

وفي سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٤ م) انكسرت السداد التي في منطة نهر عيسى بالجانب الغربي من المدينة فسبب ذلك غرق حوالي سبعة آلاف دار من محلات الجانب المذكور ، فذكر الطبري ذلك في حوادث تلك السنة قال : « وفيها انبثق ببغداد في الجانب الغربي منها من نهر عيسى من الياسرية [٤] بثق فغرق الدباغين واصحاب الساج بالكرخ ذكر انه دق سبعة آلاف دار ونحوها » [٥] . ويتضح مما تقدم أن الغرق المذكور كان من مياه فيضان نهر الفرات .

سور المستعين في الجانبين الشرقي والغربي من المدينة

وقد أنشأ المستعين بالله في سنة ٢٥١ هـ (٨٦٥ م) سورين حول بغـداد للدفاع عنها

(١) يوافق ذلك شهر شباط من سنة ٨٣١ م .

(٢) « بغداد » لاحمد بن أبي طاهر طيفور (الطبعة الاوربية لهنس كلر ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ او الطبعة المصرية ص ١٤٣ .

(٣) تاريخ الطبري (٣ : ١١٨٤) و « غرق بغداد » للاب انستاس الكرملي ، مجلة المشرق السنة العاشرة (١٩٠٧) .

(٤) كانت تقع محلة الياسرية على نهر عيسى جنوب محلة الكرخ وعندها تقع القنطرة الياسرية وباب الياسرية (راجع « خارطة بغداد في أول ادوارها العباسية » اطلس بغداد (ص ٤ ـ ٦) .

(٥) الطبري ، الطبعة المصرية (٨ : ١٤٧) ، الطبعة الأوربية (٣ : ٢١٠٥) .

عند ما فر من سامراء ، الأول يحيط بالجانب الشرقي ، وكان يضم داخله المحلات الثلاث الشماسية والرصافة والمخرّم ، والثاني يحيط ببغداد الغربية ، ويضم داخله المحلات المهمة حول مدينة المنصور [1] . وكما هو الحال في سور الرصافة المتقدم ذكره كان سور المستعين سوراً دفاعياً عسكرياً ، ولكن ليس ثمة ما ينفي أنه استخدم للوقاية من الفيضان الى ان تهدم في فيضان سنة ٣٣٠ هـ (٩٤٢ م) .

سور دار الخلافة

وكانت بغداد في أواخر القرن الثالث الهجري تشبه حلقة يحيط بها سور المستعين من كل أطرافها ثم اخذ العمران ينتشر في الجانب الشرقي منها فامتد جنوب سور المستعين على ضفة دجلة الى مسافة زهاء كيلو متر ، حيث أقيمت قصور الخلفاء والبساتين الملحقة بها وكان أهم هذه المنشآت « قصر التاج » الذي أسّسه المعتضد ، وأتم بناءه ابنه المكتفي ، ودار الشجرة والدار المثمنة وهي التي جلس فيها الطاغية هولاكو عند فتحه بغداد ، والدار المربعة ، ودار الوزارة ، والدواوين وغيرها . وصارت تعرف هذه القصور وملحقاتها باسم « دار الخلافة » وقد اتخذها الخلفاء العباسيون مقراً لحكمهم بعد عودتهم من سامراء سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) . وقد سوّرت هذه الدار بسور على هيأة نصف دائرة ، وقد وصفها ابن الجوزي بقوله : « وهي بنفسها بلد » . وكان للسور الذي يطوّقها تسعة أبواب رئيسة ، وهي من الشمال : « باب الغربة » و « باب سوق التمر » (الباب القائمي) و « باب بدر » (باب الخاصة) و « باب النوبي » (باب العتبة) و « باب العامة » (باب عمورية » و « باب النصر » و « باب الخاصة » و « باب البستان » و « باب المراتب » .

---

(١) « دليل خارطة بغداد المفصل » ص ١١٩ ، وص ١٤٨ ، و « خطط بغداد » من كتاب كليمان هوار تعريب الاستاذ ناجي معروف (ص ٨) .

أما تاريخ إنشاء سور دار الخلافة هذا ، فغير معلوم على وجه التحقيق ، الاَّ أن من المرجح أنه شرع في انشائه على عهد المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م) وأتمه الخلفاء المتأخرون [١] .

المقياس العباسي على نهر دجلة في مدينة بغداد :

وفي حوالي أواخر الدور الأول الذي حدد بين سنة ١٥٠ و ٣٥٠ هـ على وجه التقريب أخذت تتأزم الحالة بالنسبة الى خطر الفيضان بسبب توسّع المدينة الشرقية من جهة واهمال مشاريع الري من جهة أخرى ، فصار موضوع فيضان نهري دجلة والفرات موضع عناية خاصة من المسؤولين ، حيث أصبحت الحاجة شديدة لمراقبة حركات الأنهر وتسجيل مناسيب المياه خاصة في موسم الفيضان حين يفيض النهر ويهدد المدينة بالغرق . ويستدل مما كتبه المؤرخون على أن هناك مقياساً نصب على ضفتي نهر دجلة في بغداد ، وقد وصل الينا من المصادر القديمة التي سلمت من الضياع والفقدان عدة تسجيلات لمنسوب مياه النهر على هذا المقياس ، وقد اقتصرت على تسجيل حوادث بعض الفيضانات الخطرة فقط وعلى ذكر الحد الأعظم الذي بلغه منسوب الماء في كل من هذه الفيضانات مع بيان سنة حدوثه وفي أكثر الحالات ذكر اليوم والشهر ؛ فقد ورد ذكر نصب هذا المقياس فيما كتبه ابن الجوزي في كتابه « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » (حوادث سنة ٢٩٣ هـ : ٩٠٥ـ٩٠٦ م [٢]) قال : « ونصب المقياس على دجلة من جانبيها طول خمسة وعشرون ذراعاً وعلى كل ذراع علامة مدورة ، وعلى كل خمسة أذرع علامة مربعة مكتوب عليها بحديدة علامة الأذرع تعرف بها مبالغ الزيادات . » ويلاحظ أنه لم يذكر هنا الموقع الذي

(١) راجع « دليل خارطة بغداد المفصل » ص١٠٧ ـ ١١٠ كذلك « خارطة بغداد قديماً وحديثاً » و « أطلس بغداد » .

(٢) الجزء السادس ص ٧٠ .

الشيء فيه المقياس ، ولكن الاشارة اليه فيما بعد بمناسبة ذكر حوادث الفيضان وغرق بغداد يدل على وجه التأكيد على أنه كان في مدينة بغداد . وقد نصب مقياسان : أحدهما في الجانب الغربي ، والثاني في الجانب الشرقي ، لمراقبة مناسيب مياه الفيضان في كل من الجانبين عند تعذر الاتصال بينهما في حالات الفيضانات العالمية . ولا توجد لدينا معلومات عن المدلول الذي استند اليه في نصب هذا المقياس بالنسبة الى مستوى سطح البحر ، إلا أنه يرجح أن أسفل المقياس كان قد ثبت في قعر النهر ، أو في أوطأ مستوى للمياه في زمن شح المياه ، وكان ارتفاعه خمساً وعشرين ذراعاً كما تقدم ، أي ما يساوي نحو اثنى عشر متراً ونصف المتر [1] .

أعلى منسوب سجل في المقياس ومقارنته بالمناسيب الحالية :

وقد وقفنا على ذكر اثنتي عشرة قراءة سجلت على المقياس المذكور دونها المؤرخون خلال الفترة التي تمتد من سنة (٢٩٢ هـ) ، وهي السنة التي أنشيء فيها المقياس [2] الى سنة (٥٧٣ هـ) ، أي حوالي ثلثمائة سنة ، منها سبع قراءات لسبعة فيضانات سجلت خلال المائة

(١) اختلف المحققون في تقدير طول الذراع العربي بالنسبة للزمن وللبلد الذي استعمل فيه فقد حقق العلامة الايطالي نلينو طوله بدقة كما كان مستعملا في بغداد في العهد العباسي وتوصل الى انه يساوي (٠٫٤٩٣) مليمتراً ، أي حوالي خمسين سنتمتراً او نصف المتر (« علم الفلك عند العرب » ص ٢٨٩) ويرى بعض آخر كما ورد في دائره المعارف الاسلامية (١ : ٩٨٥) أن طول الذراع يساوي نحو خمسة وستين سنتمتراً ، وعلى هذا الاساس قدر المرحوم يعقوب سركيس طول المقياس بنحو ستة عشر متراً (جريدة الزمان ليوم ٩ ايار ١٩٥٠ ، ص ٤) . أما نحن فنرجح الاخذ بتدقيق نلينو باعتبار الذراع (٠٫٤٩٣) مليمتراً كما كان مستعملا في عهد المأمون وبذلك يكون طول المقياس مساوياً (١٢٫٣٣) متراً بدلا من ستة عشر مترا .

(٢) اعتبرنا تاريخ انشاء المقياس سنة ٢٩٢ هـ بدلا من سنة ٢٩٣ هـ . التي وردت في كتاب المنتظم المتقدم ذكره وذلك بناء على وجود نص يشير الى قراءة منسوب فيضان سنة ٢٩٢ هـ . على المقياس كما سنبين فيما يلي ، وهذا يدل على ان المقياس كان موجوداً في تلك السنة .

سنة الأولى (القرن الرابع الهجري) وخمسة قراءات لخمسة فيضانات خلال القرنين الخامس والسادس . ويلاحظ في هذه القراءات أن أعلى منسوب دون لهذه الفيضانات هو ما دون عن فيضان سنة (٥٦٩ هـ : ١١٧٤ م) فسجل منسوب المياه ٢٣ ذراعاً يوم ٢٣ رمضان من تلك السنة ، ويوافق ذلك احد أيام نيسان من سنة (١١٧٤ م) . ولما كان المفروض أن أسفل المقياس وضع في أعمق موضع من عقيق النهر ، أو في اوطأ مستوى لمياه النهر ، فيكون الفرق بين هذا المستوى ومنسوب ذروة فيضان سنة ٥٦٩ هـ (١١٫٣٥) متراً . واذا قارنا ذلك بمناسيب مقياس دجلة الحالي في بغداد ، وهو مثبت بالنسبة الى معدل مستوى سطح البحر ، وقد دونت قراءاته بانتظام لمدة أكثر من نصف قرن (١٩٠٧ ـ ١٩٦٢ م) نجد أن أعلى منسوب سجل للفيضانات خلال المدة المذكورة هو (٣٦) متراً فوق سطح البحر ، وكان ذلك في فيضان سنة ١٩٥٤ م الكبير على حين بلغ اوطأ منسوب سجل للنهر خلال المدة نفسها (٢٧٫٥٧) متراً ، وذلك في صيف سنة ١٩٥٧ ، وعلى هذا الأساس يكون الفرق بين أعلى منسوب سجل لفيضان دجلة في بغداد وأوطأ منسوب سجل للنهر خلال الـ (٥٧) سنة الأخيرة (٨٫٤٣) متراً أي زهاء ثمانية أمتار ونصف المتر ، في حين انه كان هذا الفرق (١١٫٣٥) متراً بالنسبة الى فيضان سنة ٥٦٩ هـ كما تقدم بيانه .

واذا اتخذنا الفرق المذكور بين أعلى وأوطأ منسوب في كل من الفيضانين ـ فيضان سنة ٥٦٩ هـ وفيضان سنة ١٩٥٤م اساساً في تحقيقنا واضفنا الـ ٢٣ ذراعاً (١١٫٣٥ متراً) وهي عمق المياه في فيضان سنة ٥٦٩ هـ الى أوطأ منسوب سجل للنهر ، في زمننا هذا ، وهو (٢٧٫٥٧) متراً فوق سطح البحر ، يصبح مستوى النهر في ذروة فيضان سنة ٥٦٩ هـ (٣٨٫٩٢) متراً ، أي بزيادة زهاء ثلاثة امتار فوق منسوب ذروة فيضان سنة ١٩٥٤ م البالغ ٣٦ متراً فوق سطح البحر . والسؤال الذي يتبادر الى الذهن : هل كانت السدود التي تحيط بالمدينة أعلى مما هي عليه اليوم بحيث امكن تجمع المياه أمامها

بهذا المستوى الهائل ؟.. جوابنا عن ذلك هو أنه لا دليل على ان السدود في القرن السادس للهجرة كانت أعلى منها اليوم ، ولا نرى تعليلا لهذه الظاهرة غير الافتراض أن قاع النهر كان أوطأ بكثير مما هو عليه اليوم ، مما جعل عمق الماء امام المدينة اكثر منه في زمننا هذا . وهناك دلائل فنية على ان حوض دجلة امام مدينة بغداد تطور بتأثير السدود الضابطة التي كانت تحول دون مرور مقادير كبيرة من مياه الفيضان المحملة بالطمي في حوض النهر امام المدينة ، و مثل هذا التطور ينتظر حدوثه في حوض دجلة امام مدينة بغداد في المستقبل بتأثير مشروع الثرثار الذي يقوم بتحويل مياه الفيضان المحملة بالطمى الى منخفض الثرثار . واذا استعرضنا ما دونه المؤرخون في وصف فيضان سنة ٥٦٩ هـ وما سبّبه من تخريبات وضياع في المال والانفس ، اطمأننّا الى أنه لا بد ان يكون قد بلغ منسوباً مساوياً لمنسوب فيضان سنة ١٩٥٤ ان لم يكن اعلى منه قليلا .

وفي تصميم بناية المستنصرية الواقعة على ضفة نهر دجلة الشرقية ما يدل على أن منسوب مياه الفيضان في نهر دجلة امامها كان يرتفع الى ما فوق مستوى ارضية البناية ، حيث نجد أن الجدران المحيطة بالبناية وخاصة الجدار المتصل بشط دجلة مكوّنة من مسناة ضخمة ذات أسس عميقة وعريضة من بناء الآجر والنورة ، وان هذه الجدران خالية من أي منفذ يمكن ان تتسرب منه مياه الفيضان في حالة ارتفاعها فوق مستوى أرضية البناية عدا المدخل الرئيس الواقع في الجانب المقابل لجبهة النهر من الداخل ومنافذ التهوية في وسط الجدران . والظاهر أنه كانت تنشأ سدة ترابية امام الباب الداخلي للحيلولة دون تسرب مياه الفيضان الى داخل البناية في حالة غرق المحلات المجاورة وتسرب المياه الى باب البناية ، فقد ورد في اخبار

غرق بغداد سنة ٦٥٤ هـ ان الناس كانوا يحضرون بالسفن ليصلّوا في المستنصرية وان عمق الماء في المدرسة النظامية الواقعة في جوار المستنصرية من الجنوب بلغ اكثر من اربع اذرع (مترين) وفي حادث غرق المدينة سنة ٦٤٦ هـ بلغ عمق الماء فيها ست اذرع (ثلاثة امتار) . والرأي الراجح هو ان مستوى المياه في هذين الفيضانين كان أعلى مما بلغه مستوى الفيضان في سنة ٥٦٩ هـ ، وتعليل سبب ذلك هو ان تنظيمات الري أخذت تتدهور حتى بلغ تدهورها اشده في آخر العصر العباسي كما سيأتي شرحه .

أمّا كمية تصريف المياه في المستوى الذي بلغه النهر في فيضان سنة ٥٦٩ هـ والفيضانات التالية ، فيصعب تقديره ، لأن اختلاط مياه دجلة وديالى وتجمعها حول المدينة ، كوّن شبه بحيرة واسعة تحيط بالمباني التي سلمت من الغرق من كل اطرافها ، فلم يبق والحالة هذه مجرى معين محصور بين ضفتين ليتسنى تقدير التصريف المائي فيه .

جدول المناسيب المسجلة مع تواريخها :

والظاهر ان المقياس العباسي الذي نحن بصدده ، لم يعد له وجود في العهد الايلخاني بعد الاحتلال المغولي لبغداد ، إذ لم نقف على أي ذكر له في كتابات المؤرخين الذين تطرقوا الى حوادث الفيضانات في ذلك العهد . ولأهمية قراءات مناسيب هذا المقياس من الناحيتين التاريخية والفنية بالنسبة الى ري العراق ، ندرج فيما يلي جدولاً بها مع تاريخ تسجيل كل منها بالتاريخ الهجري وما يقابله بالتاريخ الميلادي مع بيان المراجع المستند اليها :

المنسوب بالذراع	التاريخ الهجري	ما يقابله بالتاريخ الميلادي
٢١	جمادى الأولى ٢٩٢	آذار ٩٠٦[١]
١٩	شعبان ٣٢٨	ايار ٩٤٠ [٢]
١٨	رمضان وشوال ٣٢٩	ايار وحزيران ٩٤١ [٣]
٢٠ ١/٣	سنة ٣٣٠	سنة ٩٤٢ [٤]
٢١ ١/٣	رمضان ٣٣٧	آذار ٩٤٩ [٥]
٢١	رمضان ٣٦٦	نيسان ٩٧٧ [٦]
٢١	رمضان ٣٦٧	نيسان ٩٧٨ [٧]
٢١	رجب ـ رمضان ٤٠١	آذار ـ مايس ١٠١١ [٨]
٢١	ربيع الآخر ٤٥٤	نيسان ١٠٦٢ [٩]
٢١ ١/٢	جمادى الآخرة ٤٦٩	كانون الثاني ١٠٧٧ [١٠]
٢٣	رمضان ٥٦٩	نيسان ١١٧٤ [١١]
٢٠	شوال ٥٧٣	نيسان ١١٧٨ [١٢]

(١) « النجوم الزاهرة » (٣ : ١٥٧) .
(٢) « المنتظم » (٦ : ٣٠٠) .
(٣) « (٦ : ٣١٥ — ٣١٦) .
(٤) « (٦ : ٣٢٦) .
(٥) « (٦ : ٣٦٢) .
(٦) « (٧ : ٨٣) .
(٧) « (٧ : ٨٧) .
(٨) ابن الاثير (٩ : ١٥٩) .
(٩) « المنتظم » (٨ : ٢٢٥) و « دول الاسلام » (١ : ٢٠٦) .
(١٠) « (٨ : ٣٠٥) .
(١١) « (١٠ : ٢٤٤ـ٢٤٧) ؛ ابن الاثير (١١ : ٢٧٠) و « دول الاسلام » (٢ : ٥٩)
(١٢) « (١٠ : ٢٧٢ — ٢٧٣) .

المقياسان على نهري الفرات وديالى :

وبالنظر لما كان لفيضان نهر الفرات من تأثير في الجانب الغربي من بغداد ولفيضان نهر ديالى من تأثير في الجانب الشرقي منها ، فقد نصب مقياس على نهر الفرات ومقياس آخر على نهر ديالى . وقد وقفنا على ثلاثة تسجيلات لقراءة المقياس الأول فيما بين سنة ٣١٦ هـ وسنة ٣٢٩ هـ ، ولما كان ذلك قد جاء دون ذكر للموقع الذي نصب فيه المقياس ، فليس لدينا أية معلومات عن موقعه من نهر الفرات ، الاّ اننا نرجح أنه أنشيء في مدينة الأنبار [١] بالقياس الى اهميتها في العهد العباسي ، بدليل أن أول خليفة عباسي اتخذها عاصمة له قبل إنشاء مدينة بغداد وبناءً على ورود ذكر الانبار في عدة حوادث من اخبار فيضان نهر الفرات . واما المناسيب التي سجلت على هذا المقياس فهي كما يأتي :

المنسوب بالذراع	التاريخ الهجري	ما يقابله بالتاريخ الميلادي
١٢ ٢/٣	٣١٦	٩٢٨ [٢]
١١	شعبان ٣٢٨	ايار ٩٤٠ [٣]
١١	٣٢٩	٣٤١ [٤]

واما مقياس نهر ديالى فقد وقفنا على قراءة واحدة سجلت عليه وكان ذلك في فيضان

(١) تقع اطلال مدينة الانبار على ضفة نهر الفرات اليسرى جنوب قرية الصقلاوية الحالية و على بعد حوالي ستة كيلو مترات من جنوب صدر الصقلاوية الحالي . وقد كان للانبار مكانة سامية في زمن العرب إذ اتخذها الخليفة العباسي الأول أبو عبد الله السفاح (١٣٢ هـ = ٧٥٠ م) عاصمة لدولته وقد توفي في القصر الذي شيده فيها ، وقد ذكر ياقوت ان ابا جعفر المنصور أخ السفاح سكنها أيضاً ردحاً من الزمن قبل ان ينتقل منها الى العاصمة الجديدة بغداد .

(٢) « المنتظم » (٦ : حوادث سنة ٣١٦ هـ) .

(٣) « (٦ : ٣٠٠) .

(٤) « (٦ : ٣١٥ ـ ٣١٦) .

سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) حيث ورد ذكر زيادة تامرا (نهر ديالى) ٢٢ ذراعاً وكسراً [١] ، والارجح ان هـــذا المقياس كان قد نصب في مدينة بعقوبا لأهمية موقعها على طريق خراسان العام .

حوادث الفيضان بين سنة ٢٩٢ وسنة ٣٣٧ هـ :

وكان أول تسجيل لمتسوى مياه الفيضان على مقياس بغداد في سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٦ م) كما تقدم فزادت دجلة في هذه السنة زيادة مفرطة فتهدمت المنازل على شاطئيها من الجانبين [٢] وقد بلغ الطغيان اشده في جمادى الأولى من تلك السنة [٣] فبلغت الزيادة إحدى وعشرين ذراعاً [٤] . وفي سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) زادت دجلة بغتة زيادة مفرطة أيضاً قطعت الجسور ببغـداد وغرق من الجسارين جماعة وبلغت زيادة الفرات اثنتي عشرة ذراعاً وثلثين [٥] . وهذه هي المرة الأولى التي نجد فيها تسجيلا لمنسوب مياه فيضان الفرات على المقياس الذي نصب في الأنبار على الارجح .

وقد شهدت المدينة بين سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) وسنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) فيضانات متتالية لنهري الفرات ودجلة ، ففي سـنة ٣٢٨ هـ « انبثق بثق في نواحي الانبار على نهر الفرات فاجتاح القرى وغرق الناس والبهائم والسباع وصب الماء في الصراة الى بغداد ودخل الشوارع في الجانب الغربي من بغداد وغرق شارع الانبار فلم يبق فيه منزل وتساقطت الدور والابنية على الصراة وانقطع بعض القنطرة العتيقة والجديدة » . وفي شعبان [٦] بلغت

(١) « المنتظم » (٨ : ٢٢٥) .
(٢) « « (٦ : ٥٠) .
(٣) يوافق ذلك شهر آذار من سنة ٩٠٦ م .
(٤) « النجوم الزاهرة » (٣ : ١٠٢) .
(٥) « المنتظم » (حوادث سنة ٣١٦ هـ) .
(٦) يوافق ذلك شهر ايار من سنة ٩٤٠ م .

زيادة الفرات أحـــدى عشرة ذراعاً وزيادة دجلة تسع عشرة ذراعاً . هـذا ما ذكره ابن الجوزي في حوادث سنة ٣٢٨ هـ [١] . وقـــد ورد وصف لهذا الحادث نفسه في كتاب « النجوم الزاهرة » هـــذا نصه : « وفيهـا (ســـنة ٣٢٨ هـ) غرقت بغـداد غرقاً عظيما بلغت الزيادة تسع عشرة ذراعـاً (في دجلة) ، وانبثق بثق من نواحي الانبار فاجتاح القرى وغرق من الناس والسباع والبهائم ما لا يحصى ، ودخل الماء الى بغـداد من الجانب الغربي وتساقطت الدور ، وانقطعت القنطرتان ، القنطرة العتيقة والجديدة [٢] عند باب البصرة » [٣] .

وفي سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) زاد الفرات زيادة كبيرة ايضاً فبلغ منسوب المياه (١١) ذراعاً وهو نفس المنسوب الذي بلغه في ستة ٣٢٨ هـ فاجتاحت مياهه القرى وسببت غرق بعض محلات الجانب الغربي من بغـــداد ، اما نهر دجلة فبلغت زيادته ١٨ ذراعاً في ايار وحزيران [٤] . وجاء في كتاب « تجارب الامم » لمسكويه ما يؤيد ذلك فورد ما هذا نصه : « وفيها (ســـنة ٣٢٩ هـ) انبثق نهر الرفيل (نهر عيسى) ونهر بوق [٥] فلم يقع عناية بتلافيهما حتى خربت بادوريا بهذين البثقين بضعة عشر سنة » [٦] .

---

(١) « المنتظم » (٦ : ٣٠٠) .

(٢) ان هاتين القنطرتين تقعان على نهر الصراة وهو النهر الذي يتفرع من نهر عيسى في الجانب الغربي من مدينة بغداد وقد سميت احداهما بالعتيقة لانها ترجع الى العصر الفارسي ، اما القنطرة الثانية فقـد سميت بالجديدة لتمييزها عن القنطرة العتيقة التي كانت على الصراة قبل انشاء مدينة المنصور .

(٣) الجزء الثالث (حوادث سنة ٣٢٨ ص٢٦٦) . راجع ايضاً « الشذرات » الحنبلي (ص ٣١٠)

(٤) « المنتظم » (٦ : ٣١٥ — ٣١٦) ان ايار وحزيران ٩٤١ م يوافقان شهري رمضان وشوال ٣٢٩ هـ .

(٥) الظاهر ان كلمة « نهر بوق » وردت هنا خطأ ولعل المقصود بها نهر الصراة لان نهر بوق يقع في الجانب الشرقي من المدينة ثم ان النص يشير بوضوح الى ان البثقين حـدثا في الجانب الغربي وقد اديا الى خراب بادوريا التي في الجانب الغربي أيضاً .

(٦) الجزء الثاني ص ٩ .

وفي سنة ٣٣٠ هـ (٩٤٢ م) حدث فيضان كبير في نهر الفرات أيضاً فغرقت بغـــداد الغربية ودخل الماء مدينة المنصور وهدم طاقات باب الكوفة وكذلك تهدم السور الذي اقامه المستعين على جانبي بغداد وذلك في خلال دور الانتقال هذا ، أما تعفياً وتهدماً واما نقض قصداً . [١] فجاء فيما كتبه الخطيب بصدد خراب طاقات باب الكوفة وغرق مدينة المنصور قوله : « حدثني علي بن المحسّن قال قال لي القاضي أبو بكر بن أبي موسى الهاشمي انبثق من قبين [٢] وجاء الماء الاسود فهدم طاقات باب الكوفة ، ودخل المـــدينة فهدم دورنا فخرجنا الى الموصل وذلك في سني نيف وثلاثين وثلثمائة واقنا بالموصل سنين عدة ثم عدنا الى بغـــداد فسكنا طاق العكيّ » [٣] أما نهر دجلة فقد بلغت زيادته عشرين ذراعاً وثلث بعد أن سقطت امطار غزيرة فكتب ابن الجوزي في ذلك قال : « وجاء مطر كافواه القرب وامتلأت البلاليع وفاضت ودخل دور الناس وبلغت زيادة دجلة عشرين ذراعـــاً وثلث . » [٤]

« وفي سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) خرج الأمير أبو الوفاء الى البثق بنهر عيسى ومعه قواده ومال من خاص ماله مؤملا سده ، وذلك في أول المحرّم فاقام اياما عليه ، واجتهد هو وأبو جعفر في النفقة ، واطلاق المال ثم ان الله عز وجل لم يأذن في ذلك فحمل المـاء اكثر العمل

(١) « دليل خارطة بغداد المفصل » ص ١٤٨ .

(٢) لا يوجد نص تاريخي يعين موضع قبين هذا الا أن الرأي الراجح هو انه كان في جوار مـدينة الانبار من الشمال غير بعيد من صدر مجرى الكرمة القديم الذي يصل الفرات بدجلة . وقد ذكر صاحب المراصد قبين فقال : « لا يعرف بهذا الاسم بالعراق غير موضع فوق الانبار بمسكور تتعاهد في كل سنة تردالماء عند زيادة الفرات من نواحي دجيل ونهر عيسى انفتح بعضها في آخر ولاية المستعصم فغرقت نواحي دجيل ونهر عيسى حتى دخل الماء الى محال الجانب الغربي من بغداد . »

(٣) الجزء الأول ص ٧٦ .

(٤) « المنتظم » الجزء السـادس ص ٣٢٦ راجع أيضاً (مختصر مناقب بغـداد) لابن الجوزي (ص ٣٤) .

واغتم الأمير لذلك غماً شديداً » ، هذا ما ورد في كتاب « اخبار الراضي » للصولي [1] ، ولما كان أول المحرم يوافق ٢٤ آب ٩٤٤ م فنستدل ان البثق حدث في موسم فيضان سنة ٣٣٢ هـ .

السباع في العراق

ورد ذكر غرق السباع في فيضان سنة ٣٢٨ هـ بسبب طغيان نهر الفرات وهذا ما يدل على وجودها في العراق في ذلك العهد . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن كتابات المؤرخين تشير الى وجود السباع والأسود في العراق منذ زمن قديم ، فقد روى التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ عدة حوادث تؤيد وجود السباع في العراق في ذلك الزمن [2] . وفي العهد الأخير كانت منطقة عقرقوف غربي بغداد تكوّن منخفضا واسعاً وغابة كثيفة تأوى اليها السباع الضارية وكان يذهب الأهلون والولاة الى هذه الغابة لصيد الأسود [3] ، ومما ذكر من وقائع مع الأسود قتل الوزير أحمد باشا الأسد في منطقة عقرقوف في سنة ١١٤٥ هـ (١٧٣٢ م) وقد ذكرت هذه الواقعة مع تصوير الوزير راكباً والأسد هاجماً عليه [4] . وآخر ما ذكر من وقائع دالة على وجود السباع في العراق الحوادث التي دونها السياح الذين زاروا العراق في أوائل القرن التاسع عشر والتي تذكر أن ضفاف مجرى شط الحي (شط الغراف الحالي) كانت مشهورة بأنها مأوى الأسود وغيرها من السباع [5] . فذكر أحد

(١) « اخبار الراضي بالله والمتقي لله » لابي بكر محمد بن يحيى الصولي ص ٢٧٨ .

(٢) كتاب « الفرج بعد الشدة » الجزء الثاني ، الباب التاسع ، ص ٧٣ — ٩٤ وكتاب « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » ١/١٠٠ و ١٠١ .

(٣) « رحلة المشيء البغدادي » ، حاشية (ص ٢٦) .

(٤) « حديقة الزوراء ١٠٩ — ٢ و ١١٠ ودوحة الوزراء ص ٢٧ ؛ تاريخ العراق بين احتلالين (٥ : ٢٢٩ — ٢٣١) .

(٥) « مباحث عراقية » ، القسم الأول ص ٣١٢ — ٣١٣ ومجلة لغة العرب عدد ٩ آذار ١٩٣١ ص ١٨٦ .

السياح البريطانيين المدعو ويليام هود الذي زار بغداد في سنة ١٨١٧م أنه شاهد أسدين ضخمين في موضع خاص من المدينة ولا شك أنهما من أسود العراق [١]. ويروي كينيت لوفتس الذي كان ينقب في منطقة الوركاء أنه قتل شبلين بالقرب من تل سنكره في جنوبي الفرات [٢]، كما يروي المستر كيري الذي كان قائماً برحلة بين البصرة وبغداد بطريق نهر دجلة في زورق بخاري أن أسداً وثلاث لبوءات تجمعت على الساحل لاجئة اليه بسبب الفيضان فقتلها كلها من داخل الزورق، ويصف حالة احدى اللبوءات فيذكر أنها كانت في أشد حالات الهياج حتى قفزت الى النهر منجهة نحو الزورق فقتلت وهي في الماء [٣].

وفي سنة ٣٣٧ هـ (٩٤٩ م) زادت دجلة فبلغت الزيادة احدى وعشرين ذراعاً وثلث وكان ذلك يوم الأثنين لليلتين خلتا من شهر رمضان [٤] « فغرقت الضياع والدور التي عليها واشفى الجانب الشرقي على الغرق وهم الناس بالهرب منه . » [٥]

انهيار سد دبالى وعواقبه — مدخل الدور الثاني :

وقد حدث في أوائل القرن الرابع الهجري (أوائل القرن العاشر الميلادي) حادث خطير كان له أثر بارز في تطور فيضان نهر دجلة وازدياد خطورته بالنسبة الى مدينة بغداد ،

(١) William Heude-Voyage de la côte de Malabar à Constantinople, par le golfe Persique l'Arabie la Mesopotamie, etc. fait en 1817. Traduis' de l'Auglais par l'e traducteur de Voyage de Maxwell, Paris, 1820, PP. 260-261.

(٢) William Kenett Loftus-Travels and Researches in Chaldea, London, 1857, PP. 242-144.

(٣) Grattan Geary-Through Asiatic Turkey, London, 1878 vol. I, P. 109.

(٤) يوافق ذلك شهر آذار ٩٤٩ م .

(٥) المنتظم ، (٦ : ٣٦٢) ؛ « دول الاسلام في التاريخ » (ص ١٦٠) .

وان هذا الحادث هو انهيار السد الذي كان قد أقامه الأقدمون على نهر ديالى عند مضيق جبل حمرين بغية افساح المجال لمرور جدول النهروان في امتداده بين سامراء والكوت [1] فحولوا مياه الفيضان من أمام السد إلى أهوار المريجة شرقي نهر ديالى ومنها الى دجلة جنوب مدينة الكوت عن طريق هور الشويجة (راجع خارطة مشاريع الري القديمة في أوائل العصر العباسي) . وكان من نتائج هذا الانهيار ان عاد نهر ديالى الى مجراه الأصلي الذي كان يسير فيه قبل انشاء السد وهو مجراه الحالي الذي يصب في جنوب بغداد ، فصارت مياه فيضان نهر ديالى تتجمع في حوض نهر دجلة جنوب بغداد فتزيد في ارتفاع منسوب مياهه امام مدينة بغداد شمالاً وتعيق جريانه ، وهكذا فقد أصبحت بغداد منقادة بحكم الضرورة لمراقبة حركات فيضان نهر ديالى بالاضافة الى حركات فيضان نهر دجلة ، ويستدل من سجل الحوادث التاريخية التي وصلت الينا من ذلك العهد على ان حكام هذا الدور الجديد نصبوا مقياساً على نهر ديالى وكان ذلك في بعقوبا على الأرجح وأخذوا يسجلون ارتفاعات مناسيب مياه هذا النهر علاوة على نهر دجلة في مواسم الفيضان . وبهذا تبدأ المرحلة الثانية في تطور حالة الفيضان بالنسبة الى مدينة بغداد ، المرحلة التي يمكن تحديدها بالفترة بين سنة ٣٥٠ و ٥٥٠ هـ على وجه التقريب ، حيث أصبحت المدينة بعد انهيار سد ديالى مهددة بخطر فيضان ثلاثة أنهر ، الفرات في الجانب الغربي ودجلة وديالى في الجانب الشرقي .

وكان نهر ديالى يعرف في زمن العرب باسم « نهر تامرا » أما تسمية نهر ديالى ، فكانت تطلق على جدول بهذا الاسم ، يتفرع من الجانب الغربي من النهروان ، وينتهي الى جوار نهر دجلة جنوب بغداد . الا أنه بعد انهيار سد ديالى في جبل حمرين وانقطاع المياه عن مجرى النهروان عاد النهر يسيل في مجراه القديم الذي كان يسلكه قبل انشاء مشروع النهروان وصار يعرف باسم نهر ديالى نسبة الى جدول ديالى الذي كان يأخذ من النهروان

(١) راجع تفاصيل مشروع النهروان في كتاب « ري سامراء في عهد الخلافة العباسية » .

وينتهي إلى نهر دجلة جنوب بغداد . ولمعالجة الوضع أنشيء سد بنأبي على نهر ديالى عند ملتقاه بالنهروان لتحويل مياه نهر ديالى الى النهروان في قسمه الأسفل ، وكان يعرف هذا السد باسم « سد السهلية » الا انه كان مهدداً بفيضانات النهر سنوياً فكان يرمم بين الحين والآخر كلما حدثت تخريبات فيه ولكن دون جدوى ، وقد جرت محاولة لاعادة انشاء هذا السد على عهد مدحت باشا (١٢٨٥ هـ : ١٨٦٨ م) الا ان محاولته هذه فشلت لأن السد لم يقو على الصمود أمام فيضان ديالى الشديد . وقد اقترح ويلكوكس في جملة مشاريعه التي قدمها بعد ذلك اعادة انشاء هذا السد لاحياء القسم الأسفل من النهروان على أن تحوّل مياه فيضان ديالى الى المجرى القديم الذي كان يجري في اتجاه مجرى جدول الروز الحالي الى نهر دجلة جنوب الكوت إلا انه لم يؤخذ بهذا الاقتراح [1] .

حوادث الفيضان بعد انهيار سد ديالى :

ان أول ذكر ورد لفيضان ديالى بعد انهيار السد في جبل حمرين كان فيما رواه ابن الجوزي عن حادث فيضان دجلة سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٨ م) قال : « وفي شهر رمضان [2] وردت المدود العظيمة بتامرا فقلعت سكر السهلية وتناهت زيادة دجلة حتى انتهت إلى إحدى وعشرين ذراعاً وانفجر بالزاهر [3] من الجانب الشرقي بثق غرق الدور والشوارع وانفجر بثق من الخندق (الخندق الطاهري) غرق مقابر باب التبن [3] وقطيعة أم جعفر [3] وخرج سكان الدور الشارعة على دجلة منها وغار الماء من آبارها وبلاليعها وأنهم الناس نفوسهم خوفاً من

(١) يجد القارىء بحثاً مفصلا من تاريخ سد ديالى وسكر السهليه في كتاب « ري سامراء في عهد الخلافة العباسية » (١/١٥٩ — ١٦٢ ، (٢/٤٧١ — ٤٨٤) .

(٢) يوافق ذلك شهر نيسان من سنة ٩٧٨ م .

(٣) ان موضع الزاهر كان يعرف ببستان الزاهر وهو يقع على ضفة نهر دجلة الشرقية جنوب محلة المخرم ، اما محلة باب التبن فكانت في الجانب الغربي من المدينة والى جوارها مقبرة باب التبن وقطيعة أم جعفر ، وهذه كلها تقع في شمال وشرق الكاظمية الحالية .

غرق البلد كله ثم نقص الماء . » [1] ويستنتج من ذلك ان مياه فيضان ديالى زادت زيادة كبيرة فقلعت سكر السهلية الذي مرّ ذكره وأخذت طريقها لتصب في نهر دجلة جنوب بغداد الأمر الذي أدى إلى تجمع المياه في حوض نهر دجلة وهو في حالة فيضان أيضاً فارتفع منسوب المياه امام بغداد حتى بلغ ٢١ ذراعاً كما تقدم فغرقت المدينة في جانبيها .

وفي سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) فاض نهـــر الفرات فكسر سكرقبين وغرّق بعض محلات الجانب الغربي للمدينة ، فأشار إلىذلك الصابي قال : « وفيه (عام ٣٩٢ هـ) فاض ماء الفرات على سكرقبين وغرق سواد الانبار وبادوريا وبلغ الى المحول وقلع حيطان البساتين واسود في الصراة . » [2] أما نهر دجلة فقد فاض في سنة ٤٠١ هـ (١٠١١ م) فغرق بعض المحلات في جانبي المدينة وقـد بلغ منسوب الماء في دجلة احدى وعشرين ذراعاً وهو نفس المنسوب الذي بلغه النهر في سنة ٣٦٧ هـ . وقد كتب ابن الجوزي عن هذا الفيضان قال : « ولخمس بقين من رجب [3] زادت دجلة وامتدت الزيادة الى رمضان فبلغت احدى وعشرين ذراعاً ودخل الماء اكثر الدور الشاطئة وقطيعة الدقيق وباب التبن وباب الشعير وباب الطاق وفاض على مسجد الكف بقطيعة الدقيق فخربه واحتمل اجذعه وسقوفه وتفجرت البثوق

(١) « المنتظم » (٧ : ٨٧) . ويلاحظ ان ابن الجوزي ذكر الحادث نفسه في حوادث سنة ٣٦٦ هـ (٧ : ٨٣) مما يدل على انه مكرر لذلك اعتبرنا وقوع الحادث سنة ٣٦٧ هـ استناداً الى تعيين ابن الأثير تاريخ الحادث سنة ٣٦٧ هـ لا ٣٦٦ .

(٢) « تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء » طبعة بيروت (ص ٤٤٤) .

(٣) يوافق ذلك حوالي منتصف آذار ١٠١١ م .

وغرقت القرى والحصون . »[1]

وبعد مرور حوالي نصف قرن حدث فيضان شديد فطغى نهرا دجلة وديالى في وقت واحد سنة ٤٥٤ هـ ، وقد تميز هذا الفيضان بطول أمده فبدأ في ١٧ آذار من سنة ١٠٦٢م واستمر حتى آخر نيسان ، وكان ذلك نتيجة لسقوط الأمطار التي استمرت ثمانين يوماً دون انقطاع . وقد بلغت زيادة نهر دجلة احدى وعشرين ذراعاً وزيادة نهر ديالى اثنين وعشرين ذراعاً وكسراً فغرقت عدة أماكن من المدينة . وقد اقتصر الغرق على الجانب الشرقي من المدينة ولم يحدث ضرر ما في الجانب المقابل على ما يظهر . وقد كان على المدينة أن تصمد أمام السداد التي على النهر داخل بغداد وشمالها وجنوبها وذلك بتحكيمها بأي ثمن كان لمنع حدوث ثغرات فيها التي تؤدي الى تسرب المياه الى خلف المدينة من الشرق ، لأن السور الذي أنشأه المستعين خلف الرصافة قد انهار في فيضان سنة ٣٣٠ كما تقدم بيانه ولم يكن من الأسوار غير السور الذي يحيط بدار الخلافة والذي يقيها من خطر الغرق . وفيما يلي نص ما كتبه ابن الجوزي حول الفيضان المذكور قال : « وفي ربيع الأول وكان ذلك في السابع عشر من آذار ورد سيل شديد ليلاً ونهاراً فوقف الماء في الدروب وسقطت منه الحيطان واتصل المطر والغيم بقية آذار وجميع نيسان حتى لم يجد يوم (ذاك) ؟ وكان في أثنائه من البرد الكبار ما أهلك كثيراً من الثمار ووزنت واحدة فاذا فيها رطل وتحدث المسافرون انه كان مثل ذلك بفارس والجبال وأعمال الثغور وانه قد ورد مطر ثمانين يوماً متوالية ما طلعت فيها الشمس . وجاء سيل على حلة الاكراد فأقلعتها وشوهدت الخيل المقيدة غرقى على رأس الماء . وفي هذا الشهر زادت دجلة فبلغت الزيادة احدى وعشرين ذراعاً ورمت عدة دور وعملت السكور على نهر معلى وباب المراتب وباب الأزج والزاهر وخرج الخليفة من باب البشرى الى دجلة ليلاً وغمس القضيب النبوي

(١) « المنتظم » (٧ : ٢٥١ — ٢٥٢) راجع أيضاً ابن الأثير (٩ : ١٥٩) .

في الماء دفعتين فكان ينقص ثم يزيد بعد . وزادت تامرا اثنين وعشرين ذراعاً وكسراً وتفجرت منه بثوقه ودار الماء من جلولاء وتامرا على الوحش فحصرها فلم يكن لها مسلك فكان أهل السواد يسبحون فيأخذونه بأيديهم فيحصل للواحد منهم في اليوم مائتي رطل لحماً . » (١)

ثم دخلت سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٣ — ١٠٧٤ م) ، ففي هذه السنة « غرق الجانب الشرقي وبعض الغربي في بغداد وسببه أن دجلة زادت زيادة عظيمة وانفتح القورج (٢) عند المسناة المعزّية وجاء في الليل سيل عظيم وطفح الماء من البرية مع ريح شديدة وجاء الماء الى المنازل من فوق ونبع من البلاليع والآبار بالجانب الشرقي وهلك خلق كثير تحت الهدم وشدت الزواريق تحت التاج خوف الغرق وقام الخليفة يتضرع ويصلي وعليه البردة وبيده القضيب . » (٣) ويشير ابن الجوزي الى هذا الحادث فذكر بصدد غرق الجانب الشرقي من

(١) « المنتظم » (٨ : ٢٢٥) و « دول الاسلام » (١ : ٢٠٦) .

(٢) القورج نهر كان يستمد المياه من نهر دجلة في نقطة تقع بين سامراء وبغداد ، وكان قد حفر في زمن كسرى أنوشروان لايصال المياه الى اراضي النهروان السفلى في موسم شح المياه ، واصبح في الأدوار الأخيرة مصدر خطر على مدينة بغداد الشرقية من الغرق . وقد وصف ياقوت القورج فقال : « هو نهر بين القاطول وبغداد منه يكون غرق بغداد كل وقت تغرق وكان السبب في حفر هذا النهر ان كسرى لما حفر القاطول أضر ذلك بأهل الأسافل وانقطع عنهم الماء حتى افتقروا وذهبت أموالهم فخرج أهل تلك النواحي الى كسرى يتظلمون اليه مما حل بهم فوافوه وقد خرج متنزهاً فقالوا ايها الملك انا جئنا نتظلم فقال ممن قالوا منك فثنى رجله ونزل عن دابته وجلس على الأرض فأتاه بعض من معه بشيء يجلس عليه فأبى وقال لا أجلس الا على الأرض اذا أتاني قوم يتظلمون مني ، ثم قال ما مظلمتكم قالوا حفرت قاطولك فخرب بلادنا وانقطع عنا الماء ففسدت مزارعنا وذهب معاشنا فقال أني آمر بسده ليعود اليكم ماءكم قالوا لا نحشمك أيها الملك هذا فيفسد عليك اختيارك ولكن مر أن يعمل لنا مجرى من دون القاطول فعمل لهم مجرى بناحية القورج يجري فيه الماء فعمرت بلادهم وحسنت أحوالهم وأما اليوم فهو بلاء على أهل بغداد فانهم يجتهدون في سده واحكامه بغاية جهدهم واذا زاد الماء فأفرط بثقه وتعدى الى دورهم وبلدهم فخربه . » ولكثرة ذكر القورج في حوادث فيضان بغداد صار اسماً عاماً أي اسم جنس للهواضم الضعيفة التي تنكسر عند فيضان دجلة .

(٣) ابن الأثير (١٠ : ٦٢) .

المدينة ان الماء دخل الى دار الخلافة والجامع ومرّ بباب النوبي وغرق كثير من المحال واضاف الى ذلك قوله ان بغداد لم يكن لها سور آنذاك . »[1] وجاء في كتاب « النبراس »[2] حول هذا الفيضان ان بغداد غرقت في أيام القائم بأمر الله (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) « وخرج الماء على الخليفة من تحت سريره ، فنهض إلى الباب فلم يجد طريقاً ، فحمله الخادم على ظهره إلى التاج ولبس الخليفة بردة رسول الله (ص) وأخذ القضيب المكرم بيده ، ووقف بين يدي الله تعالى يصلي ويضرع ولم يطعم يومه وليلته . »

« وفي جمادى الآخرة من سنة ٤٦٩ هـ [3] (١٠٧٧ م) زادت دجلة فبلغت الزيادة إحدى وعشرين ذراعاً ونصفاً ونقل الناس أموالهم وخرج الوزير على الماء الى دار الخلافة فنقل تابوت القائم بأمر الله ليلاً إلى الترب بالرصافة . »[4] والظاهر انه كان لهذا الفيضان تأثير على الموقع الذي كان فيه قبر القائم بأمر الله في دار الخلافة مما حمل الوزير على نقل تابوت القائم الى الترب بالرصافة . أما القائم فكان قد توفي سنة ٤٦٧ هـ .

وفي نيسان من سنة ١١٠٨ م (٥٠٢ هـ) « زادت دجلة زيادة عظيمة وتقطعت الطرق وغرقت الغلات الشتوية والصيفية وحدث غلاء عظيم بالعراق ... وعدم الخبز رأساً وأكل الناس التمر والباقلاء الأخضر . »[5]

السور الكبير في الجانب الشرقي :

وفي هذه المرحلة من تطور مدينة بغداد أصبح أهم العمران في الجانب الشرقي منتشراً

(١) مختصر مناقب بغداد ص ٣٤ .

(٢) « تاريخ خلفاء بني العباس » ص ١٤٣ .

(٣) يوافق ذلك كانون الثاني ١٠٧٧ م .

(٤) « المنتظم » (٨ : ٣٠٥) .

(٥) ابن الأثير (١٠ : ٣٣٠) ؛ « غرق بغداد » للأب أنستاس الكرملي (مجلة المشرق ١٩٠٧) .

حول دار الخلافة متصلاً بهـــا من البر ، فشيدت حولها أهم المحلات والأسواق والدور ، فكانت أصلاً لمدينة بغداد الرئيسة التي ظهرت في العهد الأخير . ففي مستهل حكم الخليفة المستظهر (٤٨٧ — ٥١٢ هـ) شرع في انشاء سور عظيم وخندق عميق يحيطان بهذه المدينة الجديدة[١] ، ويضمان داخلها دار الخلافة وسورها وجميع العمران الذي نشأ حولها . وكان هذا السور هو وخندقه الخارجي يبـدءان من دجلة شمالاً عند بهو الأمانة الحالي وينتهيان الى دجلة عند الباب الشرقي الحالي جنوباً . وكان الشروع في انشاء هذا السور في خلافة المستظهر بالله سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م)[٢] فأنجز قسم يسير منه في عهده واكمل انشاؤه في عهد خلفه المسترشد (٥١٢ — ٥٢٩ هـ) فأتم بناءه بناء محكماً سنة ٥١٧ هـ وجعل عرض السور ٢٢ ذراعاً ، وقد ظل هذا السور قائماً حتى أواخر القرن الثالث عشر للهجرة أي ما يقارب ثمانيمئة عام . وفي عهد المقتفي (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) عملت مسناة حول السور لئلا تؤثر مياه الخندق فيه ، فعمل بعضها ، ثم أكمل انشاؤها في عهد الخلفاء الذين عقبوا المقتفي[٣] . وكان الخندق يتصل بنهر دجلة في بدايته شمالاً وفي نهايته جنوباً وكان يسد عادة في صدره عند مدخل المياه شمالاً كما كان يسد عند ملتقاه بدجلة جنوباً على أن يفتح صدره كلما دعت الحاجة الى ذلك للحيلولة دون عبور الغزاة الخندق ، الا أن المياه كانت تتسرب اليه من جهـة البر عند ما يفيض نهرا دجلة وديالى وتحدث بثوق في السداد التي في الساحل الأيسر لنهر دجلة شمالاً وفي السداد التي في الساحل الأيمن لنهر ديالى شرقاً ، فتتجمع مياه فيضان النهرين المذكورين خلف سور المدينة فيمتلىء الخندق بالمياه وتصبح مدينة بغداد

(١) ابن الأثير (١٠ : ٣٣٠) ؛ « غرق بغداد » للأب أنستاس الكرملي (مجلة المشرق ١٩٠٧) .

(٢) مما ذكره ابن الأثير في هذا الصدد قال : « في هذه السنة (٤٨٨ هـ) في شهر ربيع الآخر شرع الخليفة (المستظهر) في عمل سور على الحريم ، وأذن الوزير عميد الدولة للعامة في التفرج والعمل ، فزينوا البلد .... وجدوا في عمارته » (١٠ : ١٧٢) .

(٣) مختصر مناقب بغداد (ص ١٨) .

الشرقية جزيرة محاطة بالمياه من كل جهاتها .

وقد جعل لهذا السور العظيم أربعة أبواب فسمى الباب الشمالي « باب السلطان » وهو

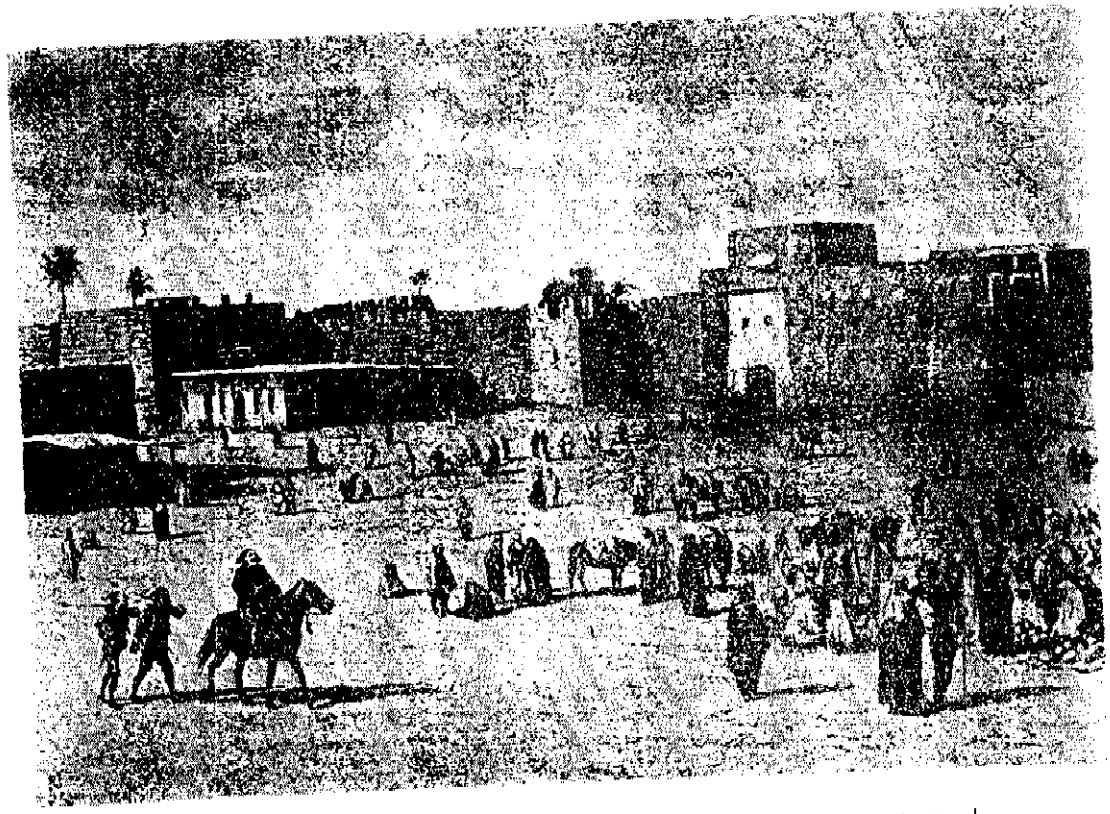

باب المعظم (وهو باب سوق السلطان أو الباب السلطاني) وقد نقض سنه ١٩٢٥
من رسم أحد السائحين الأوربيين في عهد داود باشا

طغرل بك (باب المعظم الحالي) ، وسمي الباب الثاني « باب الظفرية » وما زال هذا الباب قائماً بقرب « جامع الشيخ عمر السهروردي » ، وسمي الباب الثالث « باب الحلبة » (باب الطلسم) وكان موقعه في شرقي محلة باب الشيخ الحالية ، وقد نسف الأتراك هذا الباب عند خروجهم من بغداد سنة ١٩١٧ م ، وسمي الباب الرابع « باب كلواذى » ، وكان موقعه في المحل المسمى الآن « الباب الشرقي » وقد اتخذه الانكليز كنيسة لهم الى أن نقض .. وكان عدا الأبواب الأربعة الرئيسة هذه عدد من الأبواب الأخرى السرية .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان العمران في الجانب الشرقي حدد من الجنوب بالسور

الجديد الذي ينتهي الى دجلة عند باب كلواذى ، وان سبب عدم امتداد العمران جنوب هذا السور هو ان المنطقة التي تمتد جنوب السور والتي تعرف اليوم بالبتاويين والعلوية والكرادة الشرقية والمسبح والزوية ومعسكر الرشيد تقع في منخفض طبيعي كانت تصرّف عن طريقه مياه الفيضان التي تتجمع خلف السور من ثغرات سداد شمالي بغداد اليسرى الى نهر دجلة جنوباً . أما من الجهة الشمالية فقد امتد العمران على طول ضفة دجلة شمالاً في ظاهر السور الجديد ، فقد أسس البويهيون (٣٦٣ — ٤٨٧ هـ) دار المملكة

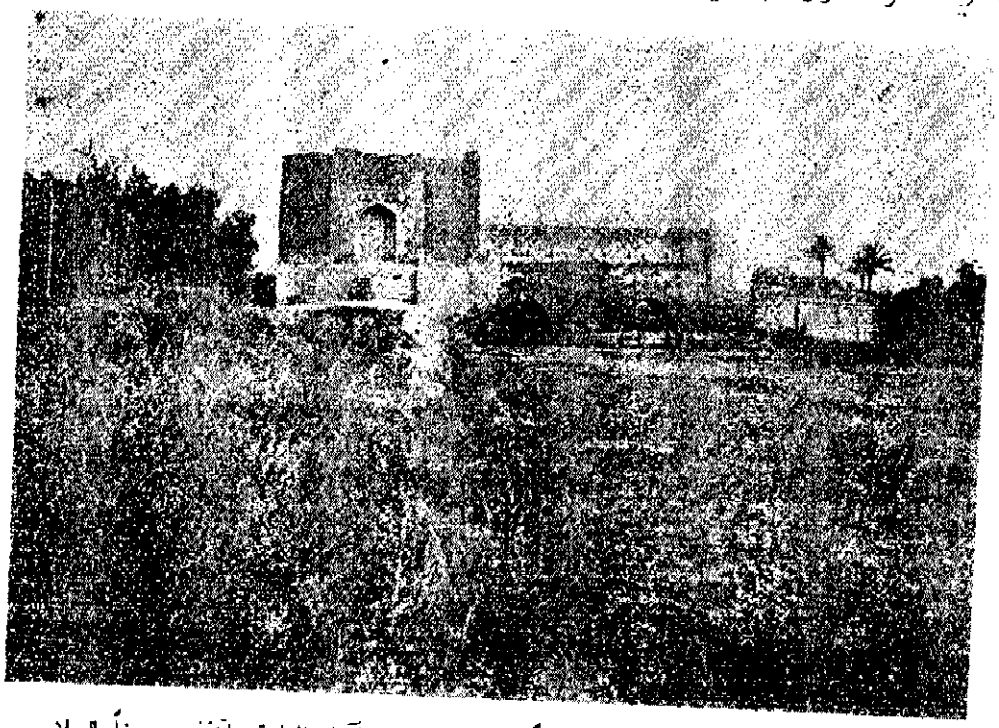

الباب الوسطاني (وهو باب الظفرية قديماً) رممته مديرية الآثار العامة واتخذته متحفاً للسلاح وهو من ابنية المئة السادسة للهجرة

البويهية على ضفة دجلة شمال السور ، وجاء بعدهم السلجوقيون (٤٨٧ — ٥٥٥ هـ) فاتخذوها مركزاً لدار السلطنة السلجوقية . وقد بنى معز الدولة البويهي قصره المشهور في باب الشماسية في الصليخ الحالية ، القصر الذي سمي « دار المعزية » نسبة الى لقبه ، وقد كانت تحيط بهذه العمارات أسوار فردية لحمايتها من الغرق ، فكان للدار المعزية وبساتينها مسناة ضخمة على نهر دجلة وسور يحيط بها من جهة البر ، ومثلها كانت دار المملكة

البويهية وغيرها من المباني في ظاهر السور الكبير ، فكانت هذه المباني تشكل قطاعات مستقلة يحيط بكل منها سور على النحو الذي سارت عليه السلطات في العهد العثماني الأخير وبعد الاحتلال البريطاني لبغداد سنة ١٩١٧ م ، وسور الرصافة الذي أمر بانشائه المستنصر في آخر عهد الخلافة العباسية نموذج من هذه القطاعات المنفردة .

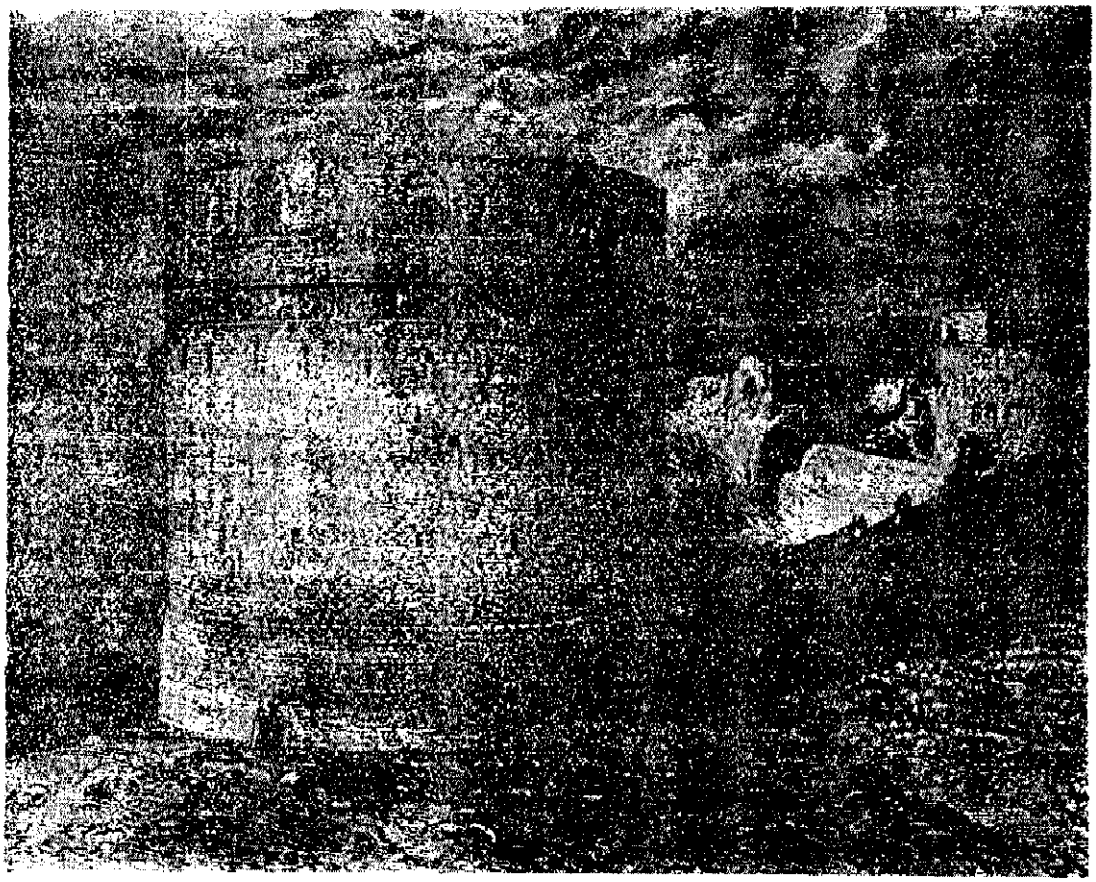

باب الطلسم (وهو باب الحلبة قديماً) جدد الناصر لدين الله بناءه سنة ٦١٨ هـ نسفه الأتراك سنة ١٩١٧ م عند انسحابهم من بغداد في أواخر الحرب العالمية الأولى من رسم أحد الرحالة الأجانب أثناء زيارته بغداد في أواخر القرن الثامن عشر

فيضان سنة ٥٥٤ هـ

وأول فيضان خطير وقع بعد انشاء السور الكبير في المدينة الشرقية كان في سنة ٥٥٤ هـ

(١١٥٩ م) [١] على أثر حدوث ثلم في القورج ، فامتلأ الخندق الذي أنشيء وراء السور من الخارج وتهدم بعض أقسام السور ، فغرقت عدة محلات في ذلك الجانب وسقطت الدور وبقي الماء في داخل المحلات بحيث لم يعرف أحد موضع داره إلا بالتخمين ، وقد غرقت عدة أماكن في

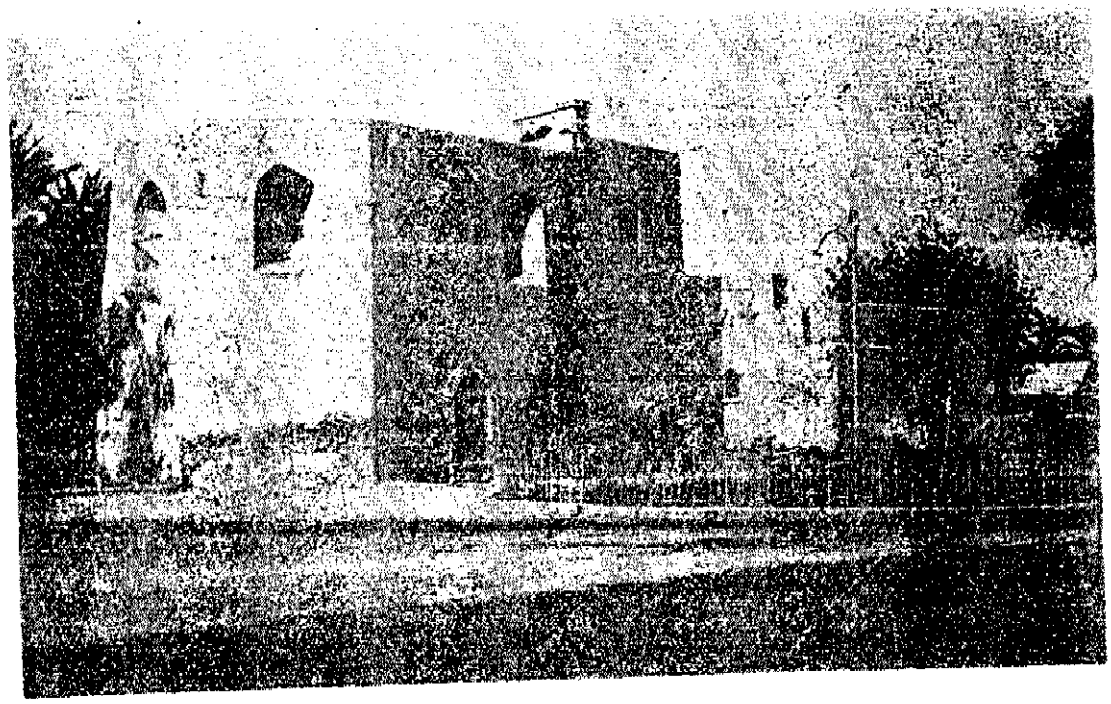

الباب الشرقي (وهو باب كلواذا قديماً) نقض سنة ١٩٣٧ وادخل في ساحة التحرير

الجانب الغربي أيضاً منها مقبرة الامام أحمد فانخسفت القبور المبنية وخرج الموتى على رأس الماء ، وقد أصاب المارستان خراب غير قليل من جراء هذا الفيضان [٢] . وعلى أثر ذلك

(١) بلغ هذا الفيضان أشده في الثامن عشر من ربيع الأول ويوافق ذلك نيسان ١١٥٩ م . انظر تفاصيل هذا الحادث في « المنتظم » (١٠ : ١٨٩ — ١٩٠) وفي « مختصر مناقب بغداد » (ص ١٨) و « تاريخ مختصر الدول » لابن العبري (ص ٣٦٣) .

(٢) شيد هذا المارستان (المستشفى) في عهد عضد الدولة في بغداد الغربية في موضع قصر الخلد الذي كان متهدماً يوم ذاك أو بجواره على قول بعضهم . وصار يعرف باسم المارستان العضدي نسبة الى مشيده . وقد استغرق بناء هذا المارستان ثلاث سنوات فقد شرع في بنائه في سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) وتمت عمارته في سنة ٣٧١ هـ (٩٨١ م) واوقف عليه عضد الدولة أوقافاً كثيرة . وانشيء حول المارستان العضدي في الأيام المتأخرة السوق الذي سمي بسوق المارستان وأنشئت أيضاً حوله محلة واسعة صارت تعرف بمحلة المارستان . وقد أصاب المارستان خراب من جراء فيضانات دجلة في سنتي ٤٦٦ هـ (١٠٧٤ م) و٥٥٤ هـ (١١٥٩م) و ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) . « دليل خارطة بغداد المفصل » ص ١٤٠ — ١٤٢ .

تقدم الخليفة المقتفي لأمر الله بعمل مسناة حول السور من جهة الخندق لمنع حدوث تآكل في السور بمياه الفيضان التي تتجمع في الخندق خلفه وقد سبقت الاشارة الى ذلك . ولم نعثر على أي تسجيل لمنسوب مياه فيضان دجلة في هذا الحادث إلا إننا نخمن بلوغه ما لا يقل عن اثنتين وعشرين ذراعاً على مقياس بغداد في ذلك الحين .

وبهذا ينتهي الدور الثاني الذي مر ببغداد ، ومما يستدعي النظر أن بعض المؤرخين قد عد حادث غرق بغداد سنة ٤٦٦ هـ أول غرق حدث في المدينة وكان الغرق الثاني سنة ٥٥٤ هـ ، والمقصود بذلك على وجه التأكيد أن فيضان سنة ٤٦٦هـ كان أول فيضان خطير إذ نعلم أن هناك أحداث غرق أخرى وقعت قبل ذلك كما سبق شرحه. أما الرواية القائلة بأن غرق سنة ٥٥٤ هـ « هو الغرق الثاني » فالأرجح أن المقصود بذلك هو أنه يلي « الغرق الأول» في أهميته وخطورته ، وهذا ينطبق عل الواقع فعلا . فقد ورد في رواية ابن الجوزي أن « الجانب الشرقي من بغداد غرق مراراً أولها سنة ست وستين وأربعمائة ولم يكن لبغداد سور فدخل الماء الى دار الخلافة والجامع ومر بباب النوبي وغرق كثير من المحال ، ثم عمل السور وجاء الغرق في سنة اربع وخمسين وخمسمائة وأحاط بالسور وتعب فيه وأغرق كثيراً من المحال . » [1] وقد عد العمراني كذلك حادث سنة ٤٦٦ هـ أول غرق حدث ببغداد وكان الغرق الثاني سنة ٥٥٤ هـ [2] . ونستنتج من ذلك أن أهل بغداد وحكومتهم أخذوا يشعرون بجدية خطر الفيضان منذ النصف الأخير من القرن الخامس الهجري بعد أن أخذت مشاريع الري تضمحل الواحد بعد الآخر فشعروا بالخطر الحقيقي في فيضان سنة

(١) « مناقب بغداد » ص ٢٤ .

(٢) ذكر ذلك ايضاً الأستاذ عباس العزاوي نقلا عن العمراني في مقاله عن « حوادث الغرق في بغداد » المنشور في نشرة « نكبة الفيضان » المطبوعة في المطبعة العربية سنة ١٩٥٤ م (ص ١٩) . وقد أشار في كتابه « التعريف بالمؤرخين » (ص ١٢٩) ان العمراني هذا هو الشيخ محمد بن علي بن محمد ابن العمراني صاحب « تاريخ الدولة العباسية من أولها الى أيام المستنجد بالله » والظاهر أن هذا المصنف غير مطبوع .

٤٦٦ هـ فعدوه أول حادث مهم في تاريخ المدينة لما احتوى عليه من أهوال .

حوادث الدور الأخير المنتهية بسقوط بغداد بيد المغول :

أما المرحلة الأخيرة التي تنتهي باحتلال المغول لبغداد فهي أخطر المراحل التي مرت بالمدينة في تاريخ الحكم العباسي ، وهي المرحلة التي كانت تسير فيها حالة البلاد من سيء الى أسوأ وهي في طريقها الى التدهور ، فتراكمت المصائب والمحن على مدينة بغداد حتى حلت الكارثة الكبرى باستيلاء هولاكو على المدينة سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) . ومن أشد المصائب التي حاقت بالمدينة في هذه المرحلة الأخيرة حوادث الفيضانات خلال سني ٥٦٩ و ٦١٤ و ٦٤٦ و ٦٥٣ و ٦٥٤ للهجرة . ويرجع سبب حدوث هذه الفيضانات الخطيرة في هذه المرحلة الأخيرة الى الاهمال في مراقبة أنظمة الري ومنشآتها والانحلال الذي ساد جهاز الدولة في ذلك الزمن ، وكانت أهم التخريبات التي حدثت في هذا العهد انهيار سد نهر العظيم على نهر العظيم وسد نمرود على نهر دجلة حوالي أواخر القرن السادس الهجري (أواخر القرن الثاني عشر للميلاد) ، وبذلك صارت كل مياه فيضان دجلة وروافده تنحدر الى جهة مدينة بغداد فتهددها بخطر الغرق ، وفي هذا تفسير لحدوث أعلى الفيضانات في هذه المرحلة الأخيرة التي أجتازتها مدينة بغداد في العهد العباسي .

وقد نسب بعض المؤرخين والباحثين التخريبات في منشئات الري الى هولاكو بعد احتلاله للعراق فذكروا أنه تعمد تخريبها في حين أن هناك دلائل على أن انهيار منشآت الري يرجع الى ما قبل احتلال هولاكو للعراق ، أي الى آخر العهد العباسي على وجه التأكيد ، حيث كان الاهمال في شؤون الري في ذلك العهد السبب الرئيس لحدوث ذلك الانهيار كما أوضحنا فيما تقدم ، ومما لا شك فيه أن خطة الارهاب والتقتيل التي أنتهجها المغول في فتحهم كان له أثر كبير في شل حركة الأيدي العاملة وبالتالي تدهور الوضع في جميع مناحي الحياة .

فيضان سنة ٥٦٩ هـ

ومما وصل الينا من حوادث القرن السادس الهجري الخطيرة حادث فيضان سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) الذي يعد من أعلى الفيضانات التي شهدتها بغداد في العهد العباسي ، فجاء فيما رواه مؤرخو ذلك العهد أن هذا الفيضان زاد على كل زيادة تقدمت منذ بنيت بغداد ، وقد بلغ منسوب الماء في دجلة حوالي ٢٣ ذراعاً وهذا يمثل أعلى قراءة وصلت الينا من القراءات التي سجلت على مقياس دجلة في بغداد في ذلك الوقت كما سبق شرحه [١]. وكان من نتائج هذا الطغيان الخطير أن انبثقت عدة بثوق في السداد على ضفة دجلة الشرقية شمالي بغداد ومنها سكر القورج ، فتسربت المياه الى السور والخندق وتجمعت خلفها نحواً من شهر ، فخرج الناس وضربوا الخيم على تلال الصحراء ، وقد امتلأ جامع السلطان [٢] بالماء ونبعت المياه من دار الخلافة وهدمت فيها دوراً كثيرة كما امتلأت النظامية وجميع الدور التي على ساحل النهر . وفي الجانب الغربي دخل الماء الى المارستان وعلا فيه ورمى عدة شبابيك من شبابيكه الحديد فكانت السفن تدخل من الشبابيك الى أرض المارستان . وزاد الفرات زيادة كبيرة أيضاً فانبثق سكر قبين وجاء الماء فاهلك من القرى والمزارع الكثير ووصل الى محال بغداد الغربية وأحدث تخريبات في بعضها . [٣]

(١) راجع ما تقدم حول هذا المنسوب ومقارنته بالمناسيب الحالية .

(٢) انشيء جامع السلطان هذا في عهد ملك شاه السلجوقي الذي أمر بوضع أسسه في سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) وقد تمت عمارته سنة ٥٢٤ هـ ، وكان يقع هذا الجامع شمال السور الكبير وغير بعيد من موضع العلوازية الحالية في الناحية الشمالية منها .

(٣) أنظر تفاصيل هذا الحادث في « المنتظم » (١٠ : ٢٤٤ — ٢٤٧) ؛ « مختصر مناقب بغداد » (ص ٣٤) ؛ ابن الأثير (حوادث ٥٦٩ هـ ١١ : ٢٢٠) ؛ « دول الاسلام في التاريخ » للذهبي (طبعة الهند ٢ : ٥٩) ؛ « تاريخ الخلفاء » السيوطي (ص ٤٤٧) .

وقد ورد فيما رواه المؤرخون عن حدوث فيضان في دجلة سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) خرب مواضع كثيرة في الجانب الشرقي من المدينة (« مختصر مناقب بغداد » ص ٣٤) . وفي شعبان من سنة ٥٦٨ هـ =

وقد حدث في الفترة التي تلي فيضان سنة ٥٦٩ هـ ، أي الفترة التي تمتد من سنة ٥٦٩ هـ حتى نهاية العهد العباسي ، أربعة فيضانات عالية لا تقل خطورة عن فيضان سنة ٥٦٩ هـ . وأول هذه الفيضانات ، فيضان سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) فزادت فيه مياه دجلة والفرات زيادة كبيرة غرق من جرائها مشهد أبي حنيفة وبعض الرصافة وجامع المهدي وغيرها من المحلات المجاورة في الجانب الشرقي للمدينة ، كما غرقت عدة محلات في الجانب الغربي من ضمنها مقبرة أحمد بن حنبل والحريم الطاهري واكثر محلة قطفتا وبعض باب البصرة[1] .

سور المستنصر بالرصافة :

وفي آخر عهد الخلافة العباسية أمر المستنصر (٦٢٣ — ٦٤٠ هـ) بانشاء سور حول الرصافة وذكر مؤلف « الحوادث » (ص ١٦) ان السور المذكور قد تم انشاؤه في سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ م) وذكره مؤلف المراصد أيضاً . ومن المرجح ان هذا السور كان يقتفي أثر سور المستعين القديم في اكثر اقسامه ، والظاهر انه أنشيء للدفاع عن منطقة الرصافة بعد أن وصل خبر تهيؤ عساكر المغول للزحف نحو بغداد ، ولا شك في انه

= (يوافق ذلك آخر آذار ١١٧٣ م) زادت دجلة زيادة كبيرة أيضاً أشرفت فيها بغداد على الغرق بعد أن وصل الماء الى المحال في الجانبين الغربي والشرقي (ابن الأثير ١١ : ٢٥٩) . وقد ورد ذكر فيضانين اعتياديين حدثا في سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٨ م) وفي سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٨ م) وصف ابن الجوزي أولهما في « المنتظم » (١٠ : ٢٧٢ — ٢٧٣) فذكر ان منسوب مياه دجلة بلغ (٢٠) ذراعاً في بغداد ، أما الفيضان الثاني فكان خطره من ناحية باب كلواذى فدخل الماء من خندق بغداد فخيف على البلد من الغرق فاهتم الخليفة (الناصر لدين الله) بسد الخندق (ابن الأثير ١٢ : ١٨٤) .

(١) ابن الاثير (١٢ : ٢١٦ — ٢١٧) .

وورد ذكر فيضانين اعتياديين حدثا في سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) وسنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م وصف أولهما ابن العبري (ص٤٣٩) فذكر ان دجلة زادت في هذه السنة زيادة كبيرة وغرقت دور كثيرة ، وكتب مؤلف الحوادث (ص ١٨٦ — ١٨٧) في وصف الفيضان الثاني فقال ان دجلة زادت زيادة كبيرة أيضاً فغرقت مواضع كثيرة ونبع الماء في المدرسة النظامية ودخل البيوت المجاورة لها .

استفيد من وجود هذا السور في الوقاية ضد خطر الفيضان من جهة البر شرقاً ، وقد انهار هذا السور في فيضان ٦٤٦ هـ .

حوادث الفيضان في آخر العهد العباسي (فيضانات سنى ٦٤٦ و ٦٥٣ و ٦٥٤ هـ) :

وحدث الفيضان الثاني في سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٩ م) ، أي قبل احتلال هولاكو لبغداد بعشر سنوات ، فغرقت في الجانب الشرقي المحلات الجديدة التي أنشئت في ظاهر السور مما يلي سوق العجم ثم انكسر سكر القورج فتعذر سده كما حدثت كسرة أخرى الى جانب دار المسناة واحاط الماء ببغداد فتهدم السور ودخل الماء الى المدينة ، فغرقت جميع المنطقة المجاورة الى المدرسة النظامية وأقام الماء في المدرسة بعمق ست اذرع (ثلاثة امتار) ، وغرقت محلة الرصافة ووقع اكثر دورها وسورها كما وصل الماء الى دار الخليفة والريحانيين ودار الوزير وباب العامة وباب بدرية وباب الغربة في سور دار الخلافة . اما الجانب الغربي فغرق باسره ومن ضمن ذلك المارستان والمشهد الكاظمي ولم يسلم سوى بعض باب البصرة والكرخ [1] .

اما الفيضان الثالث ، أي فيضان سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م) فقد شمل النهرين دجلة والفرات حيث طغيا في آن واحد فغرق القسم الاكبر من المدينة ، ففي الجانب الغربي وصل الماء الى جامع المنصور فهدمه كما هدم القبة الخضراء والمباني المجاورة وبعض مسجد قرية ، اما الجانب الشرقي فقد تهدمت فيه دار الخلافة وما جاورها من مبان كما تهدمت عدة مساجد وجوامع منها جامع المهدي بالرصافة وجامع السلطان وجامع القصر ، وقد قيل ان عدد الدور التي تهدمت في جانبي المدينة في هذا الفيضان بلغ اثنتي عشر الف دار وثلثمائة ونيفاً وسبعين داراً . [2]

(١) انظر تفصيل هذا الحادث فى « الحوادث » (٢٢٩ — ٢٣٢) .

(٢) انظر تفصيل هذا الحادث فى كتاب « الحوادث » (ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ و س ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .

وقد حدث الفيضان الاخير في آخر عهد المستعصم آخر خلفاء بني العباس وكان ذلك في آخر ايامه ، أي سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) ، حيث زادت دجلة زيادة عظيمة فانفتح القورج وعجز القائمون بالعمل عن سده فاحاط الماء بالمدينة وهدم اسواق الجانب الشرقي وغرقت دار الخلافة كلها ما عدا الدار الشاطئية وصار التنقل من محل الى آخر داخل المدينة بالسفن والاكلاك . ودخل الماء المدرسة النظامية فامتلأت وصار عمق الماء فيها اكثر من اربع اذرع (حوالي المترين) ، وصلّى الناس في المستنصرية وكانوا يحضرون بالسفن من باب المستنصرية الى سوق المدرسة والى آخره حتى غطى الماء المنازل العليا ، وكذلك غرقت عدة محلات في الجانب الغربي منها مسجد قمرية ، وانفتح قبين على نهر الفرات فغرق دجيل ونهر عيسى ونهر الملك واتلف زروعاً كثيرة . وقد تميز هذا الفيضان بطول مدة استمراره حيث دام الغرق مدة خمسين يوماً فغمر نصف ارض العراق (السواد) على حسب قول بعضهم وصار يضرب المثل بغرق خلافة المستعصم [1] .

أحمد سوسه

(١) انظر تفصيل هذا الحادث في كتاب « الحوادث » ص ٣١٧ — ٣١٩ و « مرآة الزمان » ص ٢٩٤ وطبقات الشافعية للسبكي (٥ : ١١٢٠) و « غرق بغداد » للأب أنستاس الكرملي (مجلة المشرق ١٩٠٧) .